



"الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام: دراسة مقارنة بين المعتزلة والأشاعرة في قضايا الصفات الإلهية"

كريمة مسعود محمد قاليل

قسم الفلسفة والدراسات الإسلامية، كلية التربية - صرمان، جامعة صبراتة، ليبيا

karima.qallil@sabu.edu.ly

*Islamic Philosophy and Theology: A Comparison Between the Mu'tazila and the Ash'aris
Regarding Divine Attributes*

Karima Masoud Mohamed Qalil

Department of Philosophy and Islamic Studies, Faculty of Education – Surman, Sabratha
University, Libya

تاريخ الاستلام: 2026/9/05 تاريخ المراجعة: 2026/9/07 تاريخ القبول: 2026/9/30- تاريخ النشر: 2026/10/07

الملخص:

يتناول هذا البحث قضية الصفات الإلهية عند المعتزلة والأشاعرة، من خلال دراسة العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، والكشف عن الأسس العقلية والكلامية التي أسهمت في تشكيل موقف كل مدرسة من العلاقة بين الذات الإلهية والصفات، وتنطلق الدراسة من إشكالية تتمثل في أن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة كثيرًا ما يُختزل في ثنائية «نفي الصفات وإثباتها»، في حين أن حقيقة الخلاف تتصل بمسائل أعمق، من أبرزها مفهوم التوحيد، وطبيعة الصفة، والعلاقة بين الذات والصفات، والتمييز بين التغاير المفهومي والتغاير الوجودي، فضلًا عن حدود توظيف العقل في تفسير النصوص العقدية.

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن، مع الإفادة من المنهج التاريخي في تتبع نشأة مسألة الصفات وتطورها داخل الفكر الكلامي، والرجوع قدر الإمكان إلى المصادر الأصلية للمعتزلة والأشاعرة، والاستفادة من الدراسات الحديثة في تفسير النصوص وتحليل أبعادها الفلسفية، وقد تناول البحث مفهوم الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وطبيعة العلاقة بينهما، ثم بحث مفهوم الصفات الإلهية وأصل الخلاف حولها، قبل أن يحلل موقف المعتزلة القائم على صيانة التوحيد ومنع إثبات صفات قديمة زائدة على الذات، وموقف الأشاعرة القائم على إثبات الصفات مع نفي أن يكون ذلك مستلزمًا لتعدد الذوات أو القدماء.

وتوصل البحث إلى أن المعتزلة والأشاعرة يشتركون في أصول عقدية أساسية، أهمها إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته وتنزيهه وإثبات كماله، وأن الخلاف بينهما لا يرجع إلى اختلاف في أصل التوحيد بقدر ما يرجع إلى اختلاف في تفسير مقتضياته ومفهوم الصفة والعلاقة بينها وبين الذات، كما خلص إلى أن العقل كان عنصرًا حاصرًا في بناء الموقفين، وأن الاختلاف الأساسي تمثل في المقدمات العقلية التي انطلقت منها كل مدرسة وفي طريقة الربط بين الوحدة والكثرة، وبين اختلاف المفهوم واختلاف الوجود، وأظهرت الدراسة كذلك أن قضية الصفات تمثل نقطة التقاء مهمة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية، دون أن يعني ذلك أن المواقف الكلامية كانت مجرد نتائج للفلسفة اليونانية؛ إذ ينبغي التمييز بين التفاعل التاريخي المباشر وبين التقارب في طبيعة الأسئلة والبنية العقلية، وتؤكد الدراسة أن فهم الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة يقتضي تجاوز الاختزال المذهبي إلى تحليل البنية المفاهيمية والاستدلالية التي أنتجت اختلاف الموقفين.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة الإسلامية؛ علم الكلام؛ المعتزلة؛ الأشاعرة؛ الصفات الإلهية؛ التوحيد؛ الذات والصفات؛ العقل والنقل.

Abstract:

This study examines the issue of divine attributes in Mu'tazilite and Ash'arite thought through an analysis of the relationship between Islamic philosophy and Islamic theology (Kalām). It aims to identify the rational and theological foundations that shaped each school's position concerning the relationship between the divine essence and its attributes. The study proceeds from the observation that the disagreement between the Mu'tazila and the Ash'arites is often reduced to the simple dichotomy of "negation and affirmation of the attributes," whereas the actual debate involves deeper questions concerning the meaning of divine unity, the nature of an attribute, the relationship between essence and attributes, the distinction between conceptual difference and ontological difference, and the role and limits of reason in interpreting theological texts.

The study adopts a descriptive-analytical and comparative approach, supplemented by a historical approach to trace the emergence and development of the debate over divine attributes within Islamic theological thought. It relies, as far as possible, on primary sources representing the Mu'tazilite and Ash'arite traditions, while also drawing upon modern academic studies for interpreting the texts and examining their philosophical dimensions. The study first addresses the concepts of Islamic philosophy and Kalām and the relationship between them, then examines the concept of divine attributes and the origins of the controversy surrounding them. It subsequently analyzes the Mu'tazilite position, which emphasizes the preservation of divine unity and rejects the affirmation of eternal attributes additional to the divine essence in a manner that would imply multiple eternal entities, and the Ash'arite position, which affirms divine attributes while denying that such affirmation entails multiple divine essences or independent eternal entities.

The study concludes that the Mu'tazila and the Ash'arites share fundamental theological principles, most notably belief in the existence, unity, transcendence, and perfection of God. Their disagreement therefore does not concern the principle of divine unity itself as much as it concerns how that principle should be understood and applied, as well as the meaning of an attribute and its relation to the divine essence. The study also demonstrates that reason played a significant role in the formation of both positions, while the fundamental difference lay in the rational premises adopted by each school and in the way each related unity and multiplicity, conceptual distinction and ontological distinction. Furthermore, the study shows that the issue of divine attributes constitutes an important point of intersection between Islamic philosophy and Kalām, without implying that theological positions were merely products of Greek philosophy. A distinction must therefore be maintained between demonstrable historical influence and similarities arising from the shared rational structure of the questions under discussion. The study argues that understanding the disagreement between the Mu'tazila and the Ash'arites requires moving beyond a simplified sectarian classification toward an analysis of the conceptual and argumentative structures underlying their respective positions.

Keywords: Islamic Philosophy; Kalām; Mu'tazila; Ash'arites; Divine Attributes; Divine Unity; Essence and Attributes; Reason and Revelation.

الفصل الأول: الإطار العام للبحث

المقدمة:

تحتل قضية الصفات الإلهية مكانة مركزية في تاريخ الفكر الإسلامي؛ لأنها تتصل بأصل الاعتقاد في الله تعالى من جهة، وبطريقة بناء المعرفة الدينية والعقلية من جهة أخرى؛ فالسؤال عن صفات الله تعالى ليس سؤالاً في الألفاظ والتعريفات فحسب، وإنما هو سؤال يتجاوز ذلك إلى تحديد طبيعة العلاقة بين الذات والصفة، وبين الوحدة والكثرة، وبين التنزيه والإثبات، وبين ما يقرره العقل وما يدل عليه النص، ولهذا أصبحت الصفات الإلهية من أكثر المسائل التي ظهر فيها التداخل بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية، إذ التقى المتكلمون والفلاسفة عند قضايا مثل التوحيد، والعلم الإلهي، والإرادة، والقدرة، وعلية الفعل، وإن اختلفت مقدماتهم ومناهجهم ونتائجهم.

وقد برز المعتزلة والأشاعرة في هذا السياق بوصفهما مدرستين كلاميتين كان للخلاف بينهما أثر بالغ في تشكيل النظر إلى الصفات الإلهية؛ فالمعتزلة جعلوا مبدأ التوحيد أساساً في بناء موقفهم، ورأوا أن إثبات صفات قديمة زائدة على الذات على نحو مخصوص يؤدي إلى إشكال في حقيقة التوحيد؛ ولذلك اتجهوا إلى إثبات ما تدل عليه الأسماء الإلهية مع رفض تصور الصفات بوصفها معاني قديمة زائدة على الذات.⁽¹⁾

أما الأشاعرة فقد أقاموا نظرية تقوم على إثبات صفات حقيقية قائمة بالذات، مع نفي أن يكون ذلك مستلزماً لتعدد الذوات أو الآلهة أو وقوع التركيب في الذات الإلهية، ومن هنا لم يكن الخلاف بين المدرستين خلافاً حول وجود الكمال الإلهي، وإنما حول كيفية تفسير هذا الكمال وعلاقته بالذات الإلهية.⁽²⁾

وتزداد المسألة تعقيداً عندما تدخل الفلسفة الإسلامية في مجال المقارنة؛ إذ لم يعد السؤال مقتصرًا على إثبات الصفات أو نفيها، وإنما اتصل بمباحث فلسفية أعمق، من قبيل الواحد والكثرة، والواجب والممكن، والعلة والمعلول، والعلم والمعلوم، والإرادة والتخصيص⁽³⁾، وقد كان لهذه القضايا حضور متفاوت في الجدل الكلامي، ولا سيما في المراحل التي ازداد فيها احتكاك المتكلمين بالفلسفة، وتوسعت أدواتهم البرهانية والمنطقية؛ غير أن إثبات هذا التفاعل لا يعني أن علم الكلام نشأ بوصفه فرعاً من الفلسفة، ولا أن المعتزلة أو الأشاعرة تبنا المقولات الفلسفية على نحو واحد؛ فالتاريخ الفكري الإسلامي أكثر تركيباً من هذه الصورة التبسيطية، ولذلك تقتضي المقارنة التمييز بين التشابه في النتائج، والتأثر في المنهج، والاقتراب المباشر، والتفاعل الجدلي.⁽⁴⁾

وتتبع أهمية دراسة هذه القضية من أن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة لا يكشف عن اختلاف عقدي فحسب، بل يكشف عن اختلاف في طريقة بناء المعرفة نفسها؛ فحين يقرر المعتزلي أن الذات الإلهية لا تقوم بها صفات قديمة

(1) القاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ/1996م، ص123 وما بعدها؛ أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص123.

(2) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، ص182-183؛ عبد الملك بن عبد الله الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ص17 وما بعدها.

(3) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، ع7، 2020م، ص315-337.

(4) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، ط6؛ وانظر أيضاً: أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ص65.

زائدة عليها، فإنه يتحرك من تصور خاص للتوحيد وما يقتضيه من وحدة الحقيقة الإلهية، وحين يُثبِت الأشعري الصفات ويمنع أن يكون إثباتها تعددًا للقدماء، فإنه ينطلق من تصور آخر للوحدة، يفرق فيه بين تعدد الصفات وبين تعدد الذوات المستقلة، ومإن دراسة هذه القضية تتيح الانتقال من مجرد عرض الأقوال إلى تحليل البنية العقلية التي تقف خلفها.

وبناءً على ذلك، يسعى هذا البحث إلى تقديم دراسة مقارنة لا تجعل أحد المذهبين معيارًا مسبقًا للحكم على الآخر، وإنما تعيد بناء كل موقف من داخل مقدماته ومفاهيمه، ثم تقارنه بالموقف الآخر في ضوء الأسئلة التي أثارها علم الكلام والفلسفة الإسلامية، ويهدف هذا المنهج إلى تجاوز الصياغات الاختزالية التي تجعل المعتزلة «نفاة للصفات» والأشاعرة «مثبتة لها»، لأن مثل هذه الثنائية لا تكشف عن حقيقة الخلاف ولا عن الأسئلة الفلسفية التي أنتجت.

أولاً: مشكلة البحث وتساؤلاته

1- مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في أن قضية الصفات الإلهية، على الرغم من كثرة تناولها في كتب العقائد والكلام، كثيرًا ما تعرض في صورة خلاف مذهبي مباشر بين المعتزلة والأشاعرة، بحيث يختزل موقف المعتزلة في نفي الصفات، وموقف الأشاعرة في إثباتها، دون التوقف بصورة كافية عند الأسس العقلية والفلسفية التي جعلت كل مدرسة تتبنى موقفها الخاص.

فالمشكلة العلمية لا تتمثل في معرفة أن المعتزلة والأشاعرة اختلفوا في الصفات، فهذا أمر مقرر في مصادر التراث، وإنما تتمثل في الكشف عن طبيعة هذا الاختلاف ومقدماته ونتائجه: ما الذي يعنيه المعتزلة عندما ينفون الصفات الزائدة على الذات؟ وما الذي يعنيه الأشاعرة عندما يثبتون الصفات القائمة بالذات؟ وهل الاختلاف بينهما راجع إلى تصورين مختلفين للتوحيد، أم إلى تصورين مختلفين لمفهوم الصفة، أم إلى اختلاف في طريقة توظيف العقل والنص؟ ثم ما حدود العلاقة بين هذه المناقشات الكلامية وبين المسائل التي عالجتها الفلسفة الإسلامية في الواحد والكثرة، والعلة والمعلول، والعلم والإرادة؟

ومن جهة أخرى، فإن تشابه بعض مواقف المعتزلة أو الأشاعرة مع بعض النتائج الفلسفية لا يكفي وحده لإثبات التأثير بالفلسفة؛ إذ إن التشابه قد ينشأ عن معالجة المشكلة العقلية نفسها من مقدمات مستقلة، ومن هنا تظهر ضرورة التمييز بين التفاعل الفكري الحقيقي وبين مجرد التقارب في النتائج، وعدم نسبة أي موقف إلى تأثير فلسفي إلا بناء على قرائن تاريخية ونصية يمكن التحقق منها.

وعليه يمكن صياغة المشكلة الرئيسة للبحث في السؤال الآتي: "كيف عالجت الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام قضية الصفات الإلهية، وما الأسس العقلية والكلامية التي قام عليها موقف المعتزلة والأشاعرة منها، وما أوجه الاتفاق والاختلاف بين المدرستين في تفسير العلاقة بين الذات والصفات؟"

2- تساؤلات البحث:

يتفرع عن السؤال الرئيس عدد من التساؤلات الفرعية:

- 1- ما المقصود بالفلسفة الإسلامية، وما المقصود بعلم الكلام، وما طبيعة العلاقة بينهما؟
- 2- كيف نشأ البحث الكلامي في الصفات الإلهية، وما أبرز العوامل التي أسهمت في تطوره؟
- 3- ما المقصود بالصفات الإلهية، وما أبرز أقسامها في التراث الكلامي؟

- 4- ما الأسس العقدية والعقلية التي أقام عليها المعتزلة موقفهم من الصفات؟
- 5- كيف فهم المعتزلة العلاقة بين الذات الإلهية وصفات العلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام؟
- 6- ما موقف المعتزلة من الصفات الخبرية، وما الأسس التي اعتمدوا عليها في تأويلها؟
- 7- ما الأسس التي قام عليها موقف الأشاعرة من الصفات الإلهية؟
- 8- كيف فسر الأشاعرة قيام الصفات بالذات مع المحافظة على أصل التوحيد؟
- 9- ما موقف الأشاعرة من الصفات الخبرية، وما حدود التأويل عندهم؟
- 10- ما أوجه الاتفاق بين المعتزلة والأشاعرة في قضية الصفات؟
- 11- ما أوجه الاختلاف الجوهرية بين المدرستين؟
- 12- هل يرجع الخلاف بينهما إلى اختلاف في مفهوم التوحيد، أم في مفهوم الصفة، أم في المنهج الاستدلالي، أم إلى مجموع هذه العناصر؟
- 13- ما أثر القضايا الفلسفية المتعلقة بالوحدة والكثرة والعلة والمعلول والعلم والإرادة في تطور البحث الكلامي في الصفات؟
- 14- ما القيمة الفلسفية التي يمكن استخلاصها من المقارنة بين الموقفين المعتزلي والأشعري؟

ثانيًا: أهمية البحث

تتبع أهمية البحث من المكانة المركزية التي تحتلها الصفات الإلهية في بناء التصور الإسلامي عن الله تعالى؛ إذ إن الحديث عن العلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام وغيرها من الصفات يرتبط مباشرة بمسائل التوحيد والتنزيه والفعل الإلهي، كما يرتبط بالكيفية التي يفهم بها العقل المسلم العلاقة بين الذات الإلهية وصفاتها. وتتمثل الأهمية العلمية الأولى للبحث في أنه لا يكتفي بعرض موقف المعتزلة والأشاعرة، بل يسعى إلى تحليل الأسس التي أنتجت ذلك الموقف؛ فالمذهب الكلامي لا يمكن فهمه من خلال النتيجة وحدها؛ لأن النتيجة لا تكشف دائمًا عن المقدمات التي أدت إليها، وإن البحث يعيد بناء الحجة الكلامية عند كل مدرسة، ثم يضعها في إطارها الفلسفي والمعرفي.

وتظهر أهمية البحث كذلك في محاولة تجاوز الاختزال الشائع للخلاف في عبارة «نفي الصفات وإثباتها»، لأن هذه العبارة، وإن كانت تعبر عن جانب من الخلاف، لا تكشف عن حقيقة الموقفين؛ فالمعتزلة لا ينكرون دلالة العلم والقدرة والحياة من حيث هي كمالات، والأشاعرة لا يثبتون الصفات على أنها ذوات مستقلة عن الذات الإلهية؛ ومن هنا يصبح تحليل مفهوم «الصفة» نفسه مدخلًا ضروريًا لفهم الخلاف.

كما تبرز أهمية البحث في دراسة العلاقة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية من خلال قضية محددة بدلًا من تناول العلاقة بصورة عامة؛ فقضية الصفات تسمح بتتبع الأسئلة المشتركة بين المجالين، مثل سؤال الوحدة والكثرة، وسؤال العلة والتخصيص، وسؤال العلم الإلهي، وسؤال الإرادة والفعل، وبذلك يمكن الوقوف على طبيعة التفاعل بينهما بصورة أكثر دقة.

وتتجلى الأهمية المنهجية للبحث أيضًا في اعتماده على المصادر الأصلية للمعتزلة والأشاعرة قدر الإمكان، وعدم الاكتفاء بالعرض المتأخر لمواقفهم، ويتيح ذلك التمييز بين النص التاريخي للمذهب، والتفسير اللاحق له، والتحليل الذي يقدمه الباحث، وهو تمييز ضروري في الدراسات التي تتناول تاريخ الأفكار والمذاهب.

ثالثاً: أهداف البحث

يسعى البحث إلى تحقيق مجموعة من الأهداف، من أهمها:

- 1- تحديد مفهوم الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام وبيان طبيعة العلاقة بينهما في مجال البحث في الإلهيات.
- 2- تتبع نشأة مشكلة الصفات الإلهية وتطورها داخل الفكر الكلامي الإسلامي.
- 3- تحرير مفهوم الصفات الإلهية وبيان أبرز تقسيماتها ومباحثها في التراث الكلامي.
- 4- الكشف عن الأسس العقدية والعقلية التي قام عليها موقف المعتزلة من الصفات.
- 5- تحليل نظرية الصفات عند المعتزلة بعيداً عن اختزالها في عبارة «نفي الصفات».
- 6- بيان الأسس الكلامية والعقلية التي اعتمد عليها الأشاعرة في إثبات الصفات.
- 7- تحليل مفهوم قيام الصفات بالذات عند الأشاعرة وبيان علاقته بأصل التوحيد.
- 8- دراسة موقف المدرستين من الصفات الخبرية والتأويل والكشف عن الأسس التي حكمت هذا الموقف.
- 9- إجراء مقارنة تحليلية بين المعتزلة والأشاعرة في قضية الصفات، تتجاوز مجرد سرد الأقوال.
- 10- الكشف عن الأبعاد الفلسفية الكامنة في مشكلة الصفات، ولا سيما مسائل الوحدة والكثرة، والذات والصفة، والعلم والإرادة.
- 11- تحديد طبيعة العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام في هذه القضية، والتمييز بين التأثير المباشر والتقارب الفكري.
- 12- إبراز القيمة الفكرية والتاريخية للخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في تطور علم الكلام والفكر الإسلامي.

رابعاً: منهج البحث

تقتضي طبيعة الموضوع الجمع بين أكثر من منهج؛ ولذلك يعتمد البحث أساساً على المنهج الوصفي التحليلي والمنهج المقارن، مع الإفادة من المنهج التاريخي في المواضيع التي تتطلب تتبع نشأة الأفكار وتطورها. ويستخدم المنهج الوصفي في عرض المفاهيم والمصطلحات والمواقف الكلامية والفلسفية، وتحديد معاني الصفات وأقسامها، وبيان موقف كل مدرسة منها كما ورد في مصادرها. ويستخدم المنهج التحليلي في تفكيك الحجج التي أقامها المعتزلة والأشاعرة، والكشف عن المقدمات التي يقوم عليها كل موقف، ولا سيما ما يتعلق بمفهوم التوحيد، والعلاقة بين الذات والصفة، ودلالة العلم والقدرة والإرادة، ومشكلة الوحدة والكثرة.

أما المنهج المقارن فيمثل الأداة الأساسية للدراسة؛ إذ تتم مقارنة الموقف المعتزلي بالموقف الأشعري في ضوء عناصر محددة، هي: مفهوم التوحيد، مفهوم الصفة، العلاقة بين الذات والصفات، الصفات العقلية، الصفات الخبرية، التأويل، ووظيفة العقل في بناء الموقف العقدي.

ويستفاد من المنهج التاريخي في تتبع تطور المسألة من بدايات الجدل الكلامي إلى مراحل النضج النظري، مع مراعاة السياق الذي نشأت فيه كل فكرة، وعدم إسقاط التصورات المتأخرة على المراحل المبكرة. ويحرص البحث في تطبيق هذه المناهج على الرجوع إلى المصادر الأصلية كلما أمكن، ثم الاستفادة من الدراسات الحديثة في تفسير النصوص ومناقشة الإشكالات التاريخية والفلسفية، كما يُمَيَّز بين النقل عن أصحاب المذاهب، وبين تفسير الباحثين لمواقفهم، وبين التحليل الذي تتوصل إليه الدراسة.

خامساً: حدود البحث

- 1- **الحدود الموضوعية:** يقتصر البحث على دراسة الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام من خلال قضية الصفات الإلهية، مع اتخاذ المعتزلة والأشاعرة نموذجاً للمقارنة، ولا يتناول جميع القضايا الكلامية أو جميع مباحث الفلسفة الإسلامية إلا بالقدر الذي يخدم موضوع الصفات ويكشف عن الأسس التي قامت عليها مواقف المدرستين.
- 2- **الحدود التاريخية:** يركز البحث على الفترة التي نشأت فيها المدرستان المعتزلية والأشعرية وتطورت فيها آراؤهما في الصفات، مع الرجوع إلى المراحل اللاحقة من علم الكلام عندما يكون ذلك ضرورياً لفهم تطور نظرية الصفات أو تفسير انتقال بعض المصطلحات والمناهج.
- 3- **الحدود المذهبية:** ينحصر الجانب المقارن الرئيس في المعتزلة والأشاعرة، ولا يتوسع في مواقف بقية الفرق الكلامية إلا عند الحاجة إلى بيان خلفية الخلاف أو توضيح موقع إحدى المدرستين من قضية معينة.
- 4- **الحدود المصدية:** يعتمد البحث بصورة أساسية على المصادر الأصلية للمعتزلة والأشاعرة والفلاسفة المسلمين، ثم يستفيد من الدراسات الأكاديمية الحديثة المحكمة التي تساعد على تحليل النصوص أو تفسير السياقات التاريخية والفلسفية، ولا يعتمد البحث على المصادر الإلكترونية غير المحققة بوصفها بديلاً عن الطباعات العلمية للكتب الأصلية.

سادساً: الدراسات السابقة

حظيت قضية الصفات الإلهية وعلاقة الذات بالصفات باهتمام عدد من الباحثين، كما تناولت بعض الدراسات العلاقة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية، إلا أن الدراسات التي تجمع بين المقارنة بين المعتزلة والأشاعرة في الصفات الإلهية، وتحليل الأسس العقلية والكلامية للموقفين، وربط ذلك بالبعد الفلسفي تبدو أقل حضوراً، ويمكن تصنيف أهم الدراسات ذات الصلة بموضوع البحث على النحو الآتي:

- 1- **دراسة محمد عبد الرزاق عبد الحميد عبد اللطيف: «الصفات الإلهية بين المعتزلة والأشاعرة».**⁽¹⁾ تُعد هذه الدراسة من أكثر الدراسات اتصالاً بموضوع البحث؛ لكونها تناولت قضية الصفات الإلهية من خلال المقارنة بين المعتزلة والأشاعرة، وعالجت المسألة في إطار علم مقالات الفرق، وتكمن أهميتها في تقديم معالجة مباشرة لموقف المدرستين المعتزلية والأشعرية من الصفات الإلهية، بما يتيح الوقوف على أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما، ولا سيما في تصور العلاقة بين الذات والصفات، وطريقة كل مدرسة في إثبات الصفات أو نفيها وتأويلها، وتفيد هذه الدراسة البحث الحالي في تحديد القضايا المركزية التي ينبغي أن تقوم عليها المقارنة، والاستفادة من معالجاتها للمواقف العقيدية للمدرستين؛ غير أن الدراسة الحالية تختلف عنها من حيث زاوية المعالجة؛ فهي لا تكتفي بالمقارنة العقيدية بين المعتزلة والأشاعرة، وإنما تجعل قضية الصفات الإلهية مدخلاً لدراسة العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام، وتحليل المقدمات العقلية والاستدلالية التي أسهمت في تشكيل مواقف المدرستين، مع التمييز بين التأثير الفلسفي المباشر وبين مجرد الاشتراك في الإشكالات العقلية، وتتمثل إضافة الدراسة الحالية في توسيع المقارنة من مستوى النتائج العقيدية إلى مستوى الأسس الفلسفية والكلامية والاستدلالية التي تقف وراء تلك النتائج.

(1) محمد عبد الرزاق عبد الحميد عبد اللطيف، «الصفات الإلهية بين المعتزلة والأشاعرة»، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 66، 2021م، ص 331-365.

2- دراسة أبو حسين العدني: «الصفات الإلهية عند المعتزلة: مفهومها وسبب تأويلها».⁽¹⁾

تتناول هذه الدراسة الموقف المعتزلي من الصفات الإلهية بصورة خاصة، وتركز على تحديد مفهوم الصفات عند المعتزلة، وبيان ما أثبتوه منها، والكشف عن أسباب لجوئهم إلى تأويل بعض النصوص المتعلقة بالصفات، وتتميز الدراسة، بحسب العرض المنشور لها، باعتمادها على النقل من مصادر المعتزلة أنفسهم، بدل الإقتصار على ما كتبه خصومهم أو المؤرخون عنهم، كما تناولت عددًا من المحاور، منها التعريف بالمعتزلة، وموقفهم من الصفات، وحقيقة الصفات عندهم، وأسباب التأويل، وتفيد هذه الدراسة البحث الحالي في تحليل الموقف المعتزلي من قضية الصفات من داخله، ولا سيما فيما يتعلق بالتأويل والأسس التي دفعت المعتزلة إلى إعادة تفسير بعض الألفاظ الواردة في النصوص الشرعية، كما تؤكد أهمية الرجوع إلى المصادر الأصلية للمعتزلة عند دراسة مذهبهم، وهو ما ينسجم مع المنهج الذي تتبناه الدراسة الحالية، وتختلف الدراسة الحالية عنها في أنها لا تقتصر على الموقف المعتزلي، وإنما تضعه في مقابلة مع الموقف الأشعري، ثم تتجاوز المقارنة العقيدية إلى تحليل الأسس الفلسفية والكلامية التي أسهمت في تشكيل موقف كل مدرسة من العلاقة بين الذات والصفات، فضلاً عن بحث موقع هذه المسألة ضمن التطور العام للعلاقة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية.

3- دراسة راجح مصطفى مصطفى هلال: «الخلاف بين الأشاعرة والفلاسفة حول علاقة الذات الإلهية بالصفات وموقف أثير الدين الأبهري منها: دراسة تحليلية مقارنة».⁽²⁾

تتناول هذه الدراسة إشكالية العلاقة بين الذات الإلهية والصفات من زاوية تجمع بين البحث الكلامي والفلسفي، إذ تركز على الخلاف بين الأشاعرة والفلاسفة، ثم تبحث في موقف أثير الدين الأبهري من هذا الخلاف، بهدف تحديد موقعه بين الاتجاه الكلامي والاتجاه الفلسفي، وتكتسب هذه الدراسة أهميتها بالنسبة إلى البحث الحالي من كونها تبرز أن قضية الصفات الإلهية لا تنحصر في الخلاف الكلامي بين المعتزلة والأشاعرة، وإنما تمتد إلى إشكالية أوسع تتعلق بعلاقة الذات الإلهية بالصفات في الفكر الكلامي والفلسفي، كما تقدم نموذجًا للدراسة التحليلية المقارنة التي تتعامل مع مفهوم الصفة وعلاقتها بالذات بوصفها إشكالية مشتركة بين المجالين، ومع ذلك، تختلف الدراسة الحالية عنها في موضوعها ونطاقها؛ إذ لا تتناول موقف الأبهري، ولا تجعل المقارنة الأساسية بين الأشاعرة والفلاسفة، وإنما تجعل المعتزلة والأشاعرة محور المقارنة، مع الاستفادة من البعد الفلسفي في الكشف عن الأسس التي قام عليها الخلاف بينهما. كما تسعى الدراسة الحالية إلى الجمع بين البعد التاريخي في تتبع تطور القضية، والبعد التحليلي في تفكيك مقدماتها، والبعد المقارن في بيان أثر اختلاف هذه المقدمات في النتائج التي انتهت إليها المدرستان.

(1) أبو حسين العدني، «الصفات الإلهية عند المعتزلة: مفهومها وسبب تأويلها»، 2011م، كما وردت بياناتها ومضمونها في عرض الدراسات السابقة المنشور في مجلة العلوم الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، يونيو 2019م.

(2) راجح مصطفى مصطفى هلال، «الخلاف بين الأشاعرة والفلاسفة حول علاقة الذات الإلهية بالصفات وموقف أثير الدين الأبهري منها: دراسة تحليلية مقارنة»، مجلة قطاع أصول الدين، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد 21، 2024م، ص 221-287.

4- دراسة محمد الأنصاري: «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»⁽¹⁾

تتناول هذه الدراسة العلاقة بين علم الكلام الأشعري والفلسفة الإسلامية من منظور تاريخي ومنهجي، وتسعى إلى تجاوز التصور الذي يجعل العلاقة بين المجالين قائمة على المواجهة المستمرة، وذلك من خلال تتبع مراحل تطورها وتحولاتها، وتتطلب الدراسة من تتبع مراحل العلاقة بين الكلام الأشعري والفلسفة، فتفرق بين مرحلة المواجهة المبكرة عند الأشعري والباقلاني والجويني، ومرحلة المواجهة الأكثر تخصصاً عند الغزالي والشهرستاني، ثم مرحلة الانفتاح والاستيعاب التي ظهرت بصورة أوضح عند المتكلمين المتأخرين، ولا سيما الفخر الرازي والأمدى ومن جاء بعدهما، وتخلص إلى أن العلاقة بين علم الكلام الأشعري والفلسفة لم تكن ثابتة على صورة واحدة، وإنما تطورت من المواجهة إلى قدر من الاستيعاب والتداخل المنهجي والمضموني، وتُفيد هذه الدراسة البحث الحالي في تأسيس الجانب المتعلق بالعلاقة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية، وفي ضرورة مراعاة التطور التاريخي عند الحكم على طبيعة هذه العلاقة، كما تدعم الاتجاه المنهجي القائم على التمييز بين التأثير المباشر والتقاطع في الموضوعات وطرائق الاستدلال، غير أن الدراسة الحالية تختلف عنها في أن بحثها لا ينصب على العلاقة بين الفلسفة والكلام الأشعري بصورة عامة، وإنما يستخدم قضية الصفات الإلهية نموذجاً تطبيقياً للكشف عن طبيعة هذه العلاقة، مع إدخال الموقف المعتزلي في المقارنة الأساسية، وبذلك تنتقل الدراسة الحالية من دراسة العلاقة بين المجالين في صورتها العامة إلى اختبارها في قضية عقيدية وفلسفية محددة تكشف بصورة أوضح عن أثر اختلاف المفاهيم والمقدمات العقلية والاستدلالية في اختلاف النتائج التي انتهت إليها المدرستان.

التعقيب على الدراسات السابقة:

يكشف استعراض الدراسات السابقة عن وجود اهتمام علمي واضح بقضية الصفات الإلهية، سواء من خلال دراسة موقف المعتزلة منفرداً، أو المقارنة بين المعتزلة والأشاعرة، أو دراسة العلاقة بين الصفات والفلسفة، أو البحث في طبيعة العلاقة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية؛ إلا أن هذه الدراسات على اختلاف منطلقاتها، لا تتطابق في موضوعها ومنهجها مع الدراسة الحالية؛ فبعض الدراسات ركز على الموقف المعتزلي من الصفات وأسباب التأويل، وبعضها تناول المقارنة المباشرة بين المعتزلة والأشاعرة، بينما اتجهت دراسات أخرى إلى العلاقة بين الأشاعرة والفلاسفة أو العلاقة العامة بين علم الكلام والفلسفة، ومن هنا تتمثل الإضافة التي تسعى إليها الدراسة الحالية في الجمع بين هذه المستويات داخل إطار واحد، بحيث تكون المقارنة بين المعتزلة والأشاعرة هي المحور الأساسي، وتكون قضية الصفات هي مجال التطبيق، ويكون البعد الفلسفي والكلامي هو الإطار التحليلي الذي يفسر اختلاف الموقفين.

كما تتميز الدراسة الحالية بمحاولة عدم التعامل مع المذاهب بوصفها وحدات جامدة؛ إذ ستراعي التطور التاريخي داخل كل مدرسة، وتفرق بين النصوص الأصلية والتفسيرات اللاحقة، وتبحث في المقدمات التي أنتجت النتائج بدل الاختصار على النتائج نفسها، وهذا الجانب مهم بصورة خاصة في قضية الصفات؛ لأن الخلاف بين المعتزلة

(1) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، العدد 7، مركز فاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات - مفاد، يونيو 2020م، ص 315-337.

والأشاعرة لا يظهر كاملاً بمجرد القول إن فريقاً نفى وفريقاً أثبت، وإنما يتكشف عند تحليل معنى «الصفة»، ومعنى «المغايرة»، ومفهوم «القدم»، وطبيعة العلاقة بين الوحدة والكثرة.

وعليه يمكن القول إن القيمة المضافة للدراسة الحالية تتمثل في محاولة بناء دراسة مقارنة تحليلية ذات بعد فلسفي لقضية الصفات الإلهية، تنطلق من المصادر الأصلية للمعتزلة والأشاعرة، وتستفيد من الدراسات الحديثة دون أن تجعلها بديلاً عن النصوص الأصلية، مع التزام التمييز بين التأثير الفلسفي المثبت وبين مجرد التقاطع في القضايا العقلية.

وبذلك لا تأتي الدراسة الحالية لتكرر ما سبقها، وإنما تسعى إلى إعادة تركيب المسألة من خلال سؤال أكثر تحديداً: كيف أنتج اختلاف التصور عن التوحيد والصفة والعلاقة بين الذات والصفات اختلافاً في البناء الاستدلالي عند المعتزلة والأشاعرة، وما الذي يكشفه ذلك عن طبيعة التفاعل بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية؟

الفصل الثاني: الإطار النظري للبحث

المبحث الأول: الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام

يُمثل كل من الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام جانباً مهماً من جوانب الفكر الإسلامي؛ فقد أسهما في معالجة عدد من القضايا المتعلقة بالإنسان والعالم والإله، وإن اختلفت بينهما المنطلقات والغايات وطرائق الاستدلال، وقد برزت أهمية هذه القضايا بصورة أوضح مع اتساع حركة التفاعل الفكري في الحضارة الإسلامية، وظهور مسائل جديدة احتاجت إلى معالجة عقلية تجمع بين مقتضيات العقيدة ومتطلبات النظر والاستدلال، وتزداد أهمية دراسة العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام عند تناول قضية الصفات الإلهية؛ لأن هذه القضية تقع في منطقة مشتركة بين البحث العقدي والبحث العقلي، وتتصل بمسائل الذات والصفة، والوحدة والكثرة، والوجود وما يلحق به من أوصاف، ويهدف هذا المبحث إلى تحديد مفهوم الفلسفة الإسلامية ونشأتها، ثم بيان مفهوم علم الكلام ونشأته، وصولاً إلى توضيح طبيعة العلاقة بين المجالين وأثرها في معالجة القضايا الإلهية.

المطلب الأول: مفهوم الفلسفة الإسلامية ونشأتها

- أولاً: مفهوم الفلسفة الإسلامية

تُعد الفلسفة من العلوم التي انتقلت إلى البيئة الإسلامية في سياق التفاعل الحضاري مع الثقافات السابقة، ثم أعاد المفكرون المسلمون صياغة كثير من مباحثها ضمن الإطار الفكري الإسلامي، ولذلك لا يصح النظر إلى الفلسفة الإسلامية على أنها مجرد نقل للفلسفة اليونانية، وإنما هي حصيلة تفاعل بين الموروث الفلسفي الوافد وبين الأسئلة التي نشأت داخل الحضارة الإسلامية، وقد عرّف الفلاسفة المسلمون الفلسفة تعريفات متعددة، غير أن جانباً مهماً من تصورهم لها ارتبط بالنظر في الموجودات ومحاولة معرفة حقائقها وأسبابها، ويظهر هذا الاتجاه عند الكندي الذي جعل البحث الفلسفي متصلاً بمعرفة الأشياء على قدر الطاقة الإنسانية، وربط غاية الفلسفة بالبحث عن الحقيقة، وتكشف كتاباته عن انتقال الفلسفة من مجرد معرفة المصطلحات اليونانية إلى ممارسة النظر العقلي في قضايا الوجود والمعرفة والإلهيات، ويتميز مفهوم الفلسفة الإسلامية، من هذه الزاوية، بكونه لا ينفصل عن البيئة الحضارية التي نشأ فيها؛ فقد تناول الفلاسفة المسلمون قضايا فلسفية عامة، مثل الوجود والعقل والنفس والعلل،

وفي الوقت نفسه تعاملوا مع مسائل ترتبط بالعقيدة والشريعة، ولذلك ظهرت بينهم محاولات متعددة للتوفيق بين النظر العقلي والموروث الديني، وإن اختلفت نتائج هذه المحاولات من فيلسوف إلى آخر.⁽¹⁾

- ثانيًا: نشأة الفلسفة الإسلامية

لم تنشأ الفلسفة الإسلامية في صورة علم مكتمل منذ البداية، وإنما تكونت تدريجيًا في ظل عوامل متعددة، كان من أبرزها اتساع الدولة الإسلامية واحتكاك المسلمين بالحضارات المختلفة، ثم ازدهار حركة الترجمة التي نقلت جانبًا كبيرًا من المؤلفات اليونانية إلى العربية، وقد كان العصر العباسي مرحلة حاسمة في هذا التطور، إذ نشطت حركة ترجمة الكتب الفلسفية والعلمية، وتهيأت بيئة علمية ساعدت على تداول المفاهيم والمناهج الوافدة، وقد درس ديمتري غوتاس حركة الترجمة اليونانية العربية في بغداد ضمن سياق اجتماعي وثقافي وسياسي أوسع، مبينًا أن حركة الترجمة ارتبطت بالمجتمع العباسي المبكر ولم تكن نشاطًا منفصلًا عن حركة الحضارة آنذاك، ولم يكن انتقال المؤلفات الفلسفية إلى العربية مجرد عملية نقل لغوي، إذ صاحب الترجمة شرح وتفسير ومناقشة ونقد، ثم بدأ الفلاسفة المسلمون في إنتاج مؤلفاتهم الخاصة، وبذلك انتقلت الفلسفة تدريجيًا من مرحلة التلقي إلى مرحلة الإبداع، وأصبح لها حضور في مباحث المنطق والطبيعات والإلهيات والنفس والأخلاق.⁽²⁾

- ثالثًا: تطور الفلسفة الإسلامية

مر الفكر الفلسفي الإسلامي بمراحل متعددة، بدأت مع إرهابات التفكير الفلسفي لدى الكندي، ثم تطورت مع الفارابي وابن سينا، وبلغت صورًا مختلفة عند فلاسفة المشرق والمغرب، وقد اختلف هؤلاء في عدد من المسائل الفلسفية الكبرى، إلا أنهم اشتركوا في توظيف النظر العقلي والمنطقي في معالجة قضايا الوجود والمعرفة، ويمثل الكندي مرحلة مبكرة في بناء الفلسفة باللغة العربية، بينما أسهم الفارابي في تنظيم عدد من العلوم وتصنيفها وتطوير البحث المنطقي والسياسي والإلهي، ثم جاء ابن سينا فقدم بناءً فلسفيًا واسعًا في الوجود والماهية والواجب والممكن، وفي الأندلس ظهر اتجاه فلسفي مميز عند ابن باجة وابن طفيل وابن رشد، وكان ابن رشد من أبرز من تناولوا العلاقة بين الحكمة والشريعة بصورة مباشرة.⁽³⁾

- رابعًا: الفلسفة الإسلامية وقضية العلاقة بين العقل والوحي

من أبرز القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي مسألة العلاقة بين العقل والوحي، ولا سيما عندما ظهرت نتائج عقلية أو فلسفية تحتاج إلى بيان مدى انسجامها مع النصوص الشرعية، وقد قدم ابن رشد معالجة واضحة لهذه المسألة في فصل المقال، حيث بحث في مدى مشروعية النظر العقلي، وربط النظر في الموجودات بالتدبر في صنع الله، ثم تناول مسألة التعارض الظاهري بين البرهان والنص، ويؤكد ابن رشد أن النظر البرهاني لا ينبغي أن يكون في

(1) يعقوب بن إسحاق الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريذة، القاهرة: دار الفكر العربي، 1950م، ج1، ص97 وما بعدها، وتظهر في النصوص الفلسفية للكندي عنايته بالبحث العقلي في الموجودات ومباحث العقل.

(2) ديمتري غوتاس، الفكر اليوناني والثقافة العربية: حركة الترجمة اليونانية-العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر (القرن الثاني-القرن الرابع هـ/القرن الثامن-القرن العاشر م)، ترجمة وتقديم نقولا زيادة، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2003م، ص31 وما بعدها. والكتاب يقع في 364 صفحة وفق بيانات المكتبة الوطنية التونسية.

(3) جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ط3، 1995م، ص129 وما بعدها.

تعارض حقيقي مع الشريعة، وأن ما يظهر من التعارض يحتاج إلى معالجة بحسب طبيعة الدليل ودرجة ظهوره، ويكشف ذلك عن محاولة لتأسيس علاقة بين الحكمة والشريعة على أساس عقلي ومنهجي.⁽¹⁾

- خامساً: الفلسفة الإسلامية ومبحث الإلهيات

احتل البحث في الإلهيات مكانة بارزة في الفلسفة الإسلامية، إذ تناول الفلاسفة مسائل وجود الله تعالى، وصفاته، وعلاقته بالعالم، وطبيعة الموجودات الممكنة والواجب، وأدى هذا إلى تقاطع واضح بين الفلسفة وعلم الكلام، خاصة في القضايا التي تتعلق بالذات الإلهية وصفاتها؛ غير أن تناول هذه القضايا لم يكن واحدًا عند الفلاسفة والمتكلمين؛ فالفلاسفة بنوا كثيرًا من تصوراتهم على مفاهيم الوجود والماهية والواجب والممكن والعلية، بينما انطلق المتكلمون من أصول عقدية كان إثباتها والدفاع عنها غايتهم الأساسية، ولذلك قد يلتقي الفريقان في السؤال، لكنهما يختلفان في مقدماتهما وطرق استدلالهما ونتائجهما، وهذا الاختلاف مهم في موضوع البحث؛ لأن قضية الصفات الإلهية لم تكن مجرد مسألة عقدية جزئية، وإنما ارتبطت بأسئلة أوسع عن طبيعة الموجود الأول، والوحدة والكثر، والعلاقة بين الذات وما يوصف به.⁽²⁾

- سادساً: أهمية الفلسفة الإسلامية في موضوع البحث

تتبع أهمية الفلسفة الإسلامية بالنسبة إلى هذا البحث من أنها توفر إطارًا يساعد على فهم بعض الأبعاد العقلية للمسائل التي ناقشها المتكلمون؛ فالسؤال عن حقيقة الصفة وعلاقتها بالذات، وعن إمكان اجتماع الوحدة مع تعدد الصفات، يتضمن بعدًا فلسفيًا لا يقتصر على الجانب العقدي، وإن دراسة الفلسفة الإسلامية في هذا الإطار لا تهدف إلى إثبات أن المعتزلة أو الأشاعرة كانوا فلاسفة، وإنما إلى الكشف عن المجال الفكري الذي تداخلت فيه مسائل الكلام والفلسفة، وبيان أثر التفكير العقلي في صياغة المواقف المختلفة من الصفات الإلهية، وتوضح أن الفلسفة الإسلامية نشأت في بيئة حضارية شهدت تقاعلاً واسعاً مع الفلسفات السابقة، ولا سيما اليونانية، ثم انتقلت من مرحلة الترجمة والتلقي إلى مرحلة التأليف والنقد والإبداع، وقد أصبحت الإلهيات من أهم مجالاتها، الأمر الذي أدى إلى تقاطعها مع علم الكلام في عدد من القضايا، ومن أهمها البحث في الذات الإلهية وصفاتها، ومن هنا فإن دراسة الفلسفة الإسلامية تمثل مدخلاً ضرورياً لفهم الجانب العقلي في قضية الصفات، دون افتراض أن المواقف الكلامية كانت مجرد انعكاس للفلسفة أو نتيجة مباشرة للتأثر بها.⁽¹⁾

المطلب الثاني: مفهوم علم الكلام ونشأته

- أولاً: مفهوم علم الكلام

يُعد علم الكلام أحد العلوم الإسلامية التي نشأت بهدف البحث في العقائد وإثباتها والدفاع عنها بالأدلة العقلية والنقلية، وقد تعددت تعريفاته بحسب اختلاف العلماء في تحديد موضوعه وطريقته، إلا أن جوهره يتمثل في إقامة

(1) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، القاهرة: دار المعارف، ط2، ص27 وما بعدها. وتتناول هذه المواضع مسائل النظر والبرهان والعلاقة بين ظاهر النص والمعنى البرهاني.

(2) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، ع7، 2020م، ص315-337.

(1) بيتر آدمسون، الفلسفة في العالم الإسلامي: تاريخ الفلسفة بلا فجوات، أوكسفورد: مطبعة جامعة أوكسفورد، 2016م؛ ويليام مونتغمري واظ، فترة تشكل الفكر الإسلامي، إدنبرة: مطبعة جامعة إدنبرة، 1973م.

الحجج على العقائد الدينية ودفع الاعتراضات والشبهات الواردة عليها، ومن أشهر التعريفات ما ذكره عضد الدين الإيجي في المواقف، إذ عرّف علم الكلام بأنه: «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه»، ويكشف هذا التعريف عن عنصرين أساسيين في علم الكلام: أولهما إثبات العقائد، وثانيهما استعمال الحجج في مواجهة الشبهات، وعلى هذا الأساس لا يقتصر علم الكلام على نقل العقائد، بل يقوم على النظر والاستدلال والمناقشة، ولهذا ارتبط منذ نشأته بقضايا العقل والنقل، وبمحاولة تحديد ما يجوز في حق الله تعالى وما يستحيل، وما يجب اعتقاده في أصول الدين.⁽²⁾

- ثانيًا: نشأة علم الكلام

نشأ التفكير الكلامي في ظل مجموعة من الظروف الفكرية والعقدية التي شهدتها المجتمع الإسلامي في القرون الأولى، ولا سيما مع ظهور مسائل تتعلق بالإيمان والقدر وصفات الله تعالى وكلامه، ثم تطورت المناقشات لتشمل قضايا أوسع في التوحيد والنبوة والإمامة وغيرها، وقد أدى اختلاف المسلمين في معالجة هذه المسائل إلى ظهور اتجاهات كلامية متعددة، كان من أبرزها المعتزلة، ثم الأشاعرة والماتريدية وغيرهم، ولم تكن هذه المدارس متطابقة في مناهجها، لكنها اشتركت في اعتماد النظر العقلي في الدفاع عن أصولها العقدية.⁽¹⁾

- ثالثًا: علم الكلام ومسألة التوحيد

احتل التوحيد مكانة مركزية في علم الكلام؛ لأن البحث في وحدانية الله تعالى يتصل مباشرة بإثبات وجوده وصفاته وتنزيهه عن مشابهة المخلوقات، ومن هنا أصبحت مسألة الصفات الإلهية واحدة من أهم المسائل التي تطورت حولها المناقشات الكلامية، وقد ظهر ذلك بوضوح في الفكر المعتزلي، حيث ارتبط مفهوم التوحيد بمسألة الصفات، كما ظهر في الفكر الأشعري من خلال محاولة الجمع بين إثبات الصفات والمحافظة على وحدانية الذات، ولذلك فإن دراسة تاريخ علم الكلام تقود بصورة مباشرة إلى دراسة تطور الخلاف حول الصفات.⁽²⁾

- رابعًا: العقل في علم الكلام

يُمثل العقل أداة رئيسة في المنهج الكلامي، إذ اعتمد المتكلمون على الاستدلال العقلي لإثبات عدد من القضايا العقدية والرد على المخالفين؛ غير أن استعمال العقل لم يكن متطابقًا بين المدارس؛ فقد اختلفوا في درجة الاعتماد عليه وفي حدود ما يمكن أن يثبتته وفي علاقته بالنص، وقد كان لهذا الاختلاف أثر مباشر في قضية الصفات؛ فالمعتزلة جعلوا مقتضيات العقل والتنزيه أساسًا مهمًا في تفسير الصفات، بينما استخدم الأشاعرة الاستدلال العقلي لإثبات الصفات والدفاع عن إمكان اجتماع تعدد الصفات مع وحدة الذات.⁽³⁾

(2) عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، المواقف في علم الكلام، تحقيق محمد العزازي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2020م، ص7، وقد ورد التعريف نفسه في مختصرات المواقف المتداولة.

(1) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، ص315-337.

(2) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، 1996م، ص195-196؛ أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق هلموت ريتير، فيسبادن: دار فرانز شتاينر، ط3، 1980م، ج1، ص244-248.

(3) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، 1996م، ص80، 151-157؛ إمام الحرمين الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق أسعد تميم، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ص96.

- خامساً: تطور علم الكلام

تطور علم الكلام من معالجة المسائل العقدية المبكرة إلى علم أكثر تنظيماً من حيث المصطلحات والأدلة والمناهج، ومع اتساع الحوار مع الاتجاهات الفكرية المختلفة، ظهرت الحاجة إلى تطوير أدوات الاستدلال، فدخلت مباحث المنطق وبعض القضايا الفلسفية في مؤلفات المتكلمين، خصوصاً عند المتأخرين؛ ولذلك ينبغي التمييز بين المراحل المبكرة لعلم الكلام وبين صورته في العصور اللاحقة؛ فليس من الدقيق افتراض أن جميع المتكلمين استعملوا الأدوات نفسها أو تناولوا القضايا بالطريقة نفسها.⁽¹⁾

- سادساً: الصفات الإلهية في علم الكلام

تحتل الصفات الإلهية موقعاً مركزياً في علم الكلام؛ لأنها تجمع بين إثبات الكمال لله تعالى وتنزيهه عن مشابهة الحوادث، وقد اختلفت المدارس الكلامية في تفسير هذه الصفات وفي تحديد علاقتها بالذات، فأصبح هذا الاختلاف من أبرز معالم التمايز بين المعتزلة والأشاعرة؛ فالخلاف حول العلم والقدرة والإرادة والحياة والكلام لم يكن خلافاً حول مجرد ألفاظ، وإنما ارتبط بالسؤال عن طبيعة الصفات، وهل هي معانٍ حقيقية قائمة بالذات، أم أن إثباتها على هذا النحو يؤدي إلى تعدد القدمات، ويتضح أن علم الكلام علم عقلي ذو غاية عقدية، نشأ في سياق معالجة مسائل الاعتقاد والدفاع عنها، ثم تطور بتطور الأسئلة الفكرية والمذهبية، وقد أصبحت الصفات الإلهية من أهم موضوعاته؛ لما تثيره من مسائل تتعلق بالتوحيد والتنزيه والعلاقة بين الذات والصفة؛ وبذلك يمثل علم الكلام الإطار المباشر الذي ظهرت داخله الخلافات بين المعتزلة والأشاعرة حول الصفات، في حين توفر الفلسفة الإسلامية إطاراً أوسع لفهم بعض الأبعاد العقلية والفلسفية لهذه الخلافات.⁽²⁾

المطلب الثالث: العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام

- أولاً: أوجه الالتقاء

تلتقي الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام في اهتمامهما بعدد من القضايا العقلية الكبرى، وفي مقدمتها البحث في الوجود وأسبابه، والإنسان والعقل، ومبادئ المعرفة، والإلهيات، كما أن كليهما استخدم النظر العقلي والحجاج في معالجة المسائل التي تناولها؛ غير أن هذا الالتقاء لا يعني التطابق؛ فالفلسفة الإسلامية كانت أوسع من حيث موضوعاتها، بينما ارتبط علم الكلام بصورة مباشرة بإثبات العقائد الدينية والدفاع عنها، ومن هنا يمكن القول إن مجال البحث قد يتقاطع بينهما، بينما تختلف الغاية والمنهج في كثير من المواضع.⁽¹⁾

- ثانياً: الاختلاف في الغاية والمنهج

تتجه الفلسفة إلى البحث في الحقائق والأسباب والمبادئ وفق منهج عقلي، بينما يهدف علم الكلام أساساً إلى إثبات العقائد الدينية والدفاع عنها، ولذلك قد يبدأ الفيلسوف والمتكلم من السؤال نفسه، لكنهما لا يلزمان بالضرورة بالنتيجة نفسها، ويظهر ذلك بوضوح في مبحث الإلهيات؛ فالسؤال عن الله تعالى وصفاته مشترك بين المجالين، إلا أن

(1) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، ع7،

2020م، ص315-337.

(2) أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، القطب الثاني في صفات الله تعالى، ص75-90.

(1) فرانك غريفيل، إلهيات الغزالي الفلسفية، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2009م، ص97-111.

المتكلم ينظر إليه في ضوء أصول العقيدة والنصوص الشرعية، في حين يعالجه الفيلسوف ضمن نسق فلسفي خاص في الوجود والواجب والممكن والعلية.⁽¹⁾

- ثالثاً: التفاعل التاريخي

لم تكن العلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام ثابتة عبر التاريخ الإسلامي؛ فقد اتخذت في بعض مراحلها صورة النقد والمواجهة، ثم ظهرت في مراحل لاحقة صور أكثر وضوحاً من الاستفادة من المناهج والمباحث الفلسفية، ويظهر هذا بصورة خاصة في تطور الكلام الأشعري؛ فكلما تقدم هذا العلم اتسعت أدواته العقلية، وأصبح أكثر اتصالاً بالمباحث المنطقية والفلسفية، وقد تناولت الدراسات الحديثة هذا التحول بوصفه انتقالاً تدريجياً من المواجهة إلى الاستيعاب.⁽²⁾

- رابعاً: الصفات الإلهية مجالاً للتداخل

تعد قضية الصفات الإلهية من أوضح المجالات التي يظهر فيها التداخل بين الفلسفة وعلم الكلام؛ لأنها تتضمن أسئلة حول طبيعة الموجود الأول، وعلاقة الذات بالصفات، وإمكان اجتماع الوحدة والكثرة، وقد أدى اختلاف الإجابة عن هذه الأسئلة إلى ظهور مواقف متباينة بين المدارس الكلامية، كما أصبح بعض هذه الأسئلة جزءاً من النقاش الفلسفي حول الوجود والماهية والصفة، ومن هنا يمكن دراسة الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة من زاوية عقيدة كلامية، ومن زاوية عقلية فلسفية في الوقت نفسه.⁽³⁾

- خامساً: حدود التأثير بين المجالين

ينبغي الحذر من تفسير كل تشابه بين الفلسفة وعلم الكلام على أنه نتيجة مباشرة للتأثر؛ فقد تنشأ الأسئلة المتشابهة بسبب اشتراك الطرفين في البحث عن مشكلات عقلية واحدة، كما أن المتكلمين لم يكونوا مجرد ناقلين للمقولات الفلسفية، بل أعادوا بناء كثير من المسائل داخل منظومتهم العقدية، وإن الأدق في دراسة العلاقة بينهما هو التمييز بين التأثير المباشر والتقاطع في الموضوعات والمناهج، وهذا التمييز مهم بصورة خاصة في دراسة الصفات الإلهية؛ إذ لا يكفي وجود تشابه بين بعض الحجج للقول بأن مذهباً كلامياً معيناً نشأ من الفلسفة.⁽⁴⁾

- سادساً: أثر العلاقة في موضوع الصفات

أدت العلاقة بين الكلام والفلسفة إلى زيادة عمق النقاش حول الصفات، خصوصاً عندما انتقلت المسألة من مجرد إثبات الصفة أو نفيها إلى البحث في طبيعة وجودها وعلاقتها بالذات، وهنا ظهرت أسئلة مثل: هل التعدد في الصفات يستلزم التعدد في الذات؟ وهل المغايرة بين الذات والصفة مغايرة حقيقية أم مفهومية؟ وهل يمكن أن تجتمع كثرة الصفات مع وحدة الذات؟، وهذه الأسئلة هي التي ستظهر بصورة أوضح عند دراسة موقف المعتزلة والأشاعرة،

(1) بيتر أدامسون، الفلسفة في العالم الإسلامي: تاريخ الفلسفة بلا فجوات، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2016م، ص 1-12.

(2) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، العدد 7، 2020م، ص 315-337.

(3) ريتشارد مايكل فرانك، ميتافيزيقا الكائن المخلوق عند أبي الهذيل العلاف، إسطنبول: المعهد التاريخي الأثري الهولندي، 1966م، ص 1-20.

(4) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، ع 7، 2020م، ص 315-337.

لأن الخلاف بينهما لا يقتصر على النتيجة، وإنما يمتد إلى المبادئ العقلية التي اعتمدها كل فريق في الوصول إليها.⁽²⁾

ويتضح أن العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام علاقة تداخل وتفاعل، وليست علاقة تطابق، فقد اشتركا في معالجة عدد من القضايا العقلية، واختلفا في الغايات والمناهج وفي كثير من النتائج، ومع تطور علم الكلام، وخاصة الأشعري منه، اتسعت دائرة التفاعل مع المباحث الفلسفية، وتعد الصفات الإلهية من أهم القضايا التي تكشف هذا التداخل؛ لأنها تجمع بين البعد العقدي والبحث العقلي في طبيعة الذات والصفة والوحدة والكثرة، ولذلك فإن فهم العلاقة بين الفلسفة وعلم الكلام يمثل أساساً ضرورياً للانتقال إلى دراسة الصفات الإلهية وموقف المعتزلة والأشاعرة منها.⁽³⁾

المبحث الثاني: الصفات الإلهية وأصل الخلاف فيها

تعد مسألة الصفات الإلهية من أبرز القضايا التي دار حولها الخلاف بين المدارس الكلامية، لما ترتبط به من مسائل التوحيد والتنزيه، وطبيعة العلاقة بين الذات الإلهية وما يوصف به الله تعالى من صفات الكمال، ولم يكن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في أصل إثبات كمال الله تعالى، وإنما تعلق بكيفية فهم الصفات وحقيقة قيامها بالذات وما يترتب على ذلك من لوازم عقلية.

وتزداد أهمية هذه المسألة في إطار البحث؛ لأنها تمثل مجاًلاً واضحاً لاختلاف المناهج العقلية بين المدرستين، كما تكشف عن تداخل البحث الكلامي مع بعض القضايا الفلسفية المتعلقة بالوحدة والكثرة، والذات والصفة، والمغايرة والاستقلال.

- المطلب الأول: مفهوم الصفات الإلهية وأقسامها

يقصد بالصفات الإلهية المعاني التي يوصف الله تعالى بها على وجه يليق بجلاله وكماله، والتي تميزه عن غيره من الموجودات، وقد تناول المتكلمون هذه الصفات في إطار بحثهم في التوحيد، فبحثوا في صفات مثل العلم والقدرة والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام، وما يتعلق بها من أحكام، ويظهر من كتب المتكلمين أن إثبات الصفات لا يعني تشبيه الله تعالى بالمخلوقين؛ إذ إن الاشتراك في أصل الوصف لا يستلزم التماثل في الحقيقة والكيفية؛ فالله تعالى يوصف بالعلم، والإنسان يوصف بالعلم، لكن علم الله تعالى قديم محيط، بينما علم الإنسان حادث محدود. ولذلك ارتبط إثبات الصفات عند المتكلمين بالتنزيه عن مشابهة الحوادث.⁽¹⁾

وتتنوع الصفات في كتب علم الكلام بحسب الاعتبار الذي ينظر إليها منه، ومن أشهر تقسيماتها الصفات النفسية، والصفات المعنوية، والصفات الخبرية؛ فالصفة النفسية ترجع إلى ما يدل على ثبوت الذات، أما الصفات المعنوية فتتعلق بمعانٍ قائمة بالذات، كالقدرة والعلم والإرادة والحياة والسمع والبصر والكلام عند الأشاعرة، في حين تنثير الصفات الخبرية إشكالات خاصة بسبب ورودها في النصوص بما قد يوهم التشبيه إذا حملت على المعاني الحسية،

(2) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، 1996م، ص 151-157؛ 196-195.

(3) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق عبد الله محمد الخليفي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1424هـ، ص 69 وما بعدها.

(1) أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، في مباحث الصفات؛ فقد أثبت الباقلاني لله تعالى صفات العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والبقاء، مع تأكيد عدم مشابهتها لصفات المخلوقين.

كما ميّز المتكلمون بين صفات الذات وصفات الفعل؛ فصفات الذات لا تتفك عن الذات الإلهية، بينما تتعلق صفات الفعل بما يصدر عن الله تعالى من أفعال، كالخلق والإيجاد والإحياء والإماتة، ويظهر هذا التقسيم أهمية التمييز بين ما هو قائم بالذات وبين ما يتعلق بأفعال الله تعالى وآثار قدرته.

وتبرز أهمية الصفات المعنوية بصورة خاصة في الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة؛ لأن السؤال لم يكن حول مجرد إطلاق ألفاظ العلم والقدرة والإرادة على الله تعالى، وإنما حول حقيقة المعاني التي تدل عليها هذه الألفاظ: هل هي صفات حقيقية قائمة بالذات، أم أن إثباتها على هذا النحو يؤدي إلى تعدد القدماء؟ ومن هنا أصبحت الصفات مدخلاً مباشراً إلى الخلاف بين المدرستين، وقد اتصلت هذه المسألة بمشكلة فلسفية أوسع، هي العلاقة بين الوحدة والكثرة؛ فإذا كانت الذات الإلهية واحدة، فكيف يمكن إثبات صفات متعددة لها؟ وهل اختلاف الصفات في المفهوم يستلزم اختلافاً في الوجود؟ وقد اختلفت إجابات المتكلمين عن هذه الأسئلة تبعاً لاختلاف تصورهم لطبيعة الصفة وعلاقتها بالذات.

وعليه، فإن مفهوم الصفات الإلهية لا يمكن فهمه بمعزل عن أصل التوحيد؛ لأن إثبات الصفات ونفيها ارتبطا في الفكر الكلامي بالسؤال عن كيفية المحافظة على كمال الله تعالى وتنزيهه في الوقت نفسه، وهذا ما يفسر انتقال الخلاف من مجرد وصف الله تعالى بالعلم والقدرة إلى البحث في حقيقة هذه الصفات وعلاقتها بذاته، ويتبين أن الصفات الإلهية تمثل معاني الكمال التي يوصف الله تعالى بها على الوجه اللائق به، وأن الخلاف الكلامي لم ينشأ من إنكار كمال الله تعالى، وإنما من اختلاف المدارس في تفسير حقيقة الصفات وعلاقتها بالذات، وتأتي هذه المسألة في مقدمة القضايا التي سيتحدد من خلالها الفرق بين الموقف المعتزلي والموقف الأشعري.

- المطلب الثاني: موقف المعتزلة من الصفات الإلهية

يقوم الموقف المعتزلي من الصفات على أصل التوحيد والتنزيه، ولذلك رفض المعتزلة إثبات صفات قديمة زائدة على الذات الإلهية، لأنهم رأوا أن القول بقدّم صفات متعددة يفضي إلى إثبات أكثر من قديم، وهو ما يتعارض مع وحدانية الله تعالى، ومع ذلك لا يصح وصف موقفهم بأنه إنكار مطلق لصفات الله؛ لأنهم أثبتوا له العلم والقدرة والحياة والإرادة وغيرها من معاني الكمال، وإنما خالفوا في كونها صفات زائدة قائمة بالذات.⁽¹⁾

وعلى هذا الأساس، لم ينف المعتزلة أن الله تعالى عالم وقادر وحي ومريد، وإنما فسّروا هذه الأوصاف بطريقة لا تجعلها معاني قديمة زائدة على الذات؛ فالله تعالى عندهم عالم بذاته، وقادر بذاته، وحي بذاته، ولا يحتاج إثبات هذه الأوصاف إلى افتراض صفات أخرى قائمة بذاته ومتميزة عنها، وقد ارتبط هذا الموقف بمفهوم التوحيد عند المعتزلة؛ فإثبات ذات واحدة قديمة مع صفات قديمة زائدة عليها، في نظرهم، يفتح باب القول بتعدد القدماء، ولذلك رأوا أن المحافظة على التوحيد تقتضي ألا تثبت لله تعالى صفات على نحو يؤدي إلى هذا التعدد، ويظهر هذا الاتجاه في معالجة المعتزلة لصفات العلم والقدرة والحياة؛ إذ لم ينكروا المعاني التي تدل عليها هذه الألفاظ، وإنما نفوا أن تكون هناك معاني قديمة مستقلة في الاعتبار عن الذات، وبذلك حاولوا المحافظة على معنيين في وقت واحد: إثبات كمال الله تعالى، وتنزيهه عن التعدد والتركيب؛ أما الإرادة فقد كانت كذلك من مسائل الخلاف، إذ لم يفسرها المعتزلة على النحو الذي يجعلها صفة قديمة زائدة على الذات كما هو عند الأشاعرة، وقد أدى اختلافهم

(1) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ/1996م، ص123 وما بعدها، في مباحث التوحيد والصفات، وقد أشار المصدر إلى مواضع البحث في أصول التوحيد عند القاضي عبد الجبار.

في طبيعة الإرادة إلى اختلاف في تفسير تعلقها بأفعال الله تعالى وأفعال العباد، وهو ما جعل مسألة الصفات مرتبطة بمسألة أوسع هي مسألة أفعال الله تعالى.⁽²⁾

ومن المسائل التي ارتبطت بالخلاف في الصفات كذلك مسألة كلام الله تعالى؛ فقد ذهب المعتزلة إلى أن كلام الله حادث مخلوق، ولم يثبتوا كلاماً قديماً قائماً بذاته تعالى، ويترتب على ذلك اختلافهم مع الأشاعرة في طبيعة الكلام الإلهي، وفي العلاقة بين الكلام والذات والصفات، وبذلك يمكن القول إن موقف المعتزلة يقوم على إعادة الصفات إلى الذات وعدم إثبات معانٍ قديمة زائدة عليها، مع الإقرار بما تدل عليه تلك الصفات من كمال، ولذلك فإن عبارة «نفي الصفات» تحتاج إلى استعمال دقيق؛ فالمقصود عند المعتزلة نفي الصفات الزائدة القديمة، لا نفي أوصاف الكمال عن الله تعالى، ويتأسس الموقف المعتزلي على محاولة الجمع بين إثبات كمال الله تعالى والمحافظة على وحدانيته وتنزيهه، وقد رأى المعتزلة أن هذا يتحقق بنفي الصفات القديمة الزائدة على الذات، مع إثبات العلم والقدرة والحياة والإرادة وغيرها من المعاني على وجه لا يؤدي إلى تعدد القدماء، ومن هنا أصبح التوحيد الأساس الذي وجه موقفهم من الصفات.

– المطلب الثالث: موقف الأشاعرة من الصفات الإلهية

اتخذ الأشاعرة موقفاً مغايراً للمعتزلة، إذ أثبتوا لله تعالى صفات حقيقية قائمة بذاته، ورأوا أن نفيها بحجة المحافظة على التوحيد ليس لازماً عقلاً، ومن أبرز الصفات التي أثبتها الأشاعرة: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، وجعلوا هذه الصفات معاني قائمة بالذات الإلهية، ويؤكد الباقلاني في الإنصاف قدم هذه الصفات، وينكر العلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والبقاء ضمن صفات الذات، مع تأكيده أنها لا تشبه صفات المخلوقين، كما يقرر أن الصفات لا توصف بأنها «هي هو» ولا بأنها موجودات مستقلة عنه، ويقوم الدليل الأشعري على أن اختلاف الصفات في المعنى لا يستلزم تعدد الذوات؛ فالعلم غير القدرة من حيث المفهوم، والقدرة غير الإرادة، ولكن هذه الصفات جميعاً قائمة بذات إلهية واحدة، وإن تعدد الصفات لا يعني تعدد الآلهة أو وجود ذوات قديمة مستقلة، وقد كان هذا التصور محاولة لمعالجة الاعتراض المعتزلي المتعلق بتعدد القدماء؛ فالأشاعرة لا يرون أن الصفة ذات قائمة بنفسها حتى يكون إثباتها إثباتاً لتقديم آخر، وإنما هي معنى قائم بالذات، وبذلك فصلوا بين التعدد في الصفات والتعدد في الذوات.⁽¹⁾

كما أثبت الأشاعرة الكلام صفة لله تعالى، ورأوا أنه كلام قديم قائم بذاته، وهو من أبرز مواضع الخلاف مع المعتزلة الذين قالوا بخلق القرآن، ويظهر في هذا الخلاف اختلاف أعمق حول طبيعة الصفة نفسها: هل يمكن إثبات معنى قديم قائم بالذات، أم أن ذلك يؤدي إلى ما يمنعه أصل التوحيد؟⁽²⁾، وقد تطور الموقف الأشعري في معالجة هذه القضايا عبر مراحل مختلفة، فأصبحت مسألة العلاقة بين الذات والصفات أكثر دقة في كتب المتكلمين المتأخرين، ومن هنا ظهرت عبارات تفرق بين الذات والصفة من جهة المفهوم، مع نفي استقلال الصفة عنها من جهة الوجود.

(2) المرجع السابق، القاضي عبد الجبار بن أحمد، ص 183-184.

(1) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ/1983م، ص 84-91.

(2) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق: هلموت ريتير، فيسبادن: Franz Steiner Verlag، ط3، 1980م، ج1، ص 285-286.

ويتضح أن الأشاعرة أثبتوا الصفات الإلهية باعتبارها معاني حقيقية قائمة بالذات، ولم يروا أن تعدد الصفات يؤدي إلى تعدد القدماء؛ لأن الصفات ليست ذواتاً مستقلة، وبذلك حاولوا الجمع بين إثبات صفات الكمال والمحافظة على التوحيد والتنزيه.

ويتبين من العرض السابق أن مسألة الصفات الإلهية كانت من أهم مواضع الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة، وأن أصل الخلاف لم يكن في إثبات كمال الله تعالى، وإنما في تحديد طبيعة الصفات وعلاقتها بالذات، فقد اتجه المعتزلة إلى نفي الصفات القديمة الزائدة على الذات حفاظاً على التوحيد، بينما أثبت الأشاعرة الصفات الحقيقية القائمة بالذات، ورأوا أن تعددها لا يستلزم تعدد الذوات، وتُمثل هذه المسألة أساساً مناسباً للانتقال إلى المقارنة بين المدرستين، ليس من حيث النتائج العقيدية فقط، وإنما من حيث الأسس العقلية والفلسفية التي وجهت كل مدرسة إلى موقفها من الصفات.

المبحث الثالث: المقارنة والتحليل الفلسفي

بعد الوقوف على مفهوم الصفات الإلهية وأقسامها، وبيان موقف المعتزلة منها، ثم عرض الموقف الأشعري وتحليل الأسس التي قام عليها، يتبين أن الخلاف بين المدرستين لا ينحصر في مجرد إثبات الصفات أو نفيها، وإنما يتصل بجملة من القضايا الكلامية والفلسفية المتداخلة، وفي مقدمتها مفهوم التوحيد، وطبيعة العلاقة بين الذات والصفات، وحدود الدلالة العقلية، ومشكلة التعدد والقدم، وكيفية التوفيق بين مقتضيات التنزيه وإثبات صفات الكمال. ومن ثم فإن المقارنة بين المعتزلة والأشاعرة تقتضي تجاوز العرض المذهبي إلى الكشف عن المنطلقات العقلية التي أنتجت اختلافهما، وبيان أن كل مدرسة حاولت معالجة المشكلة من داخل تصورها الخاص لطبيعة الوجود الإلهي ولعلاقة العقل بالنقل، كما أن تطور علم الكلام الأشعري أتاح له لاحقاً الاستفادة من عدد من الأدوات والمباحث الفلسفية، حتى أصبح الفصل بين الكلام والفلسفة أكثر تعقيداً في مراحل المتأخرين، وقد أشارت دراسات حديثة إلى هذا الانتقال من المواجهة المبكرة إلى الاستيعاب التدريجي لبعض المناهج والمباحث الفلسفية داخل الكلام الأشعري.

المطلب الأول: أوجه الاتفاق والاختلاف بين المعتزلة والأشاعرة

- أولاً: أوجه الاتفاق بين المدرستين

على الرغم من الشهرة الواسعة للخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في مسألة الصفات، فإن بينهما قدرًا مهمًا من الاتفاق في الأصول العامة، وهو ما ينبغي إبرازه حتى لا تتحول المقارنة إلى تصوير للخلاف باعتباره تعارضًا مطلقًا؛ فكلًا المدرستين ينطلق من أصل التوحيد، ويؤكد أن الله تعالى واحد لا شريك له، منزه عن مشابهة المخلوقات، متصف بالكمال، وأن العقل قادر على إدراك جملة من القضايا المتعلقة بإثبات الصانع وصفاته وتنزيهه عن النقائص، كما تشترك المدرستان في استعمال النظر العقلي والحجاج البرهاني والكلامي للدفاع عن العقائد ومواجهة الاعتراضات، ومن هنا فإن الخلاف بينهما لا يتمثل في أن المعتزلة يثبتون التوحيد والأشاعرة يثبتونه، ولا في أن إحدى المدرستين تستعمل العقل والأخرى ترفضه، وإنما يتمثل أساسًا في كيفية بناء مفهوم التوحيد، وما يترتب عليه من تحديد العلاقة بين الذات والصفات.⁽¹⁾

(1) ينظر: عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، تحقيق محمد العزازي، بيروت: دار الكتب العلمية، 2020م، ص7؛ والقاضي عبد الجبار، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ/1996م، في مباحث التوحيد؛

- ثانيًا: الاتفاق في إثبات كمال الله وتنزيهه

يتفق المعتزلة والأشاعرة على أن الله تعالى متصف بصفات الكمال ومنزه عن صفات النقص، وإنما اختلفوا في تفسير طبيعة الصفات وكيفية إثباتها؛ فالمعتزلة لا ينكرون أن الله تعالى عالم وقادر وحي ومريد، وإنما ينكرون أن تكون هذه الصفات معاني قديمة زائدة على الذات بالمعنى الذي يؤدي - في نظرهم - إلى تعدد القدماء؛ أما الأشاعرة فيثبتون هذه الصفات باعتبارها معاني قائمة بالذات، ويرون أن إثباتها لا يؤدي إلى تعدد الذوات أو الآلهة؛ وبذلك فإن الخلاف في حقيقته خلاف في تفسير الكمال الإلهي أكثر من كونه خلافاً في أصل الاعتراف به؛ فكلتا المدرستين تريد إثبات كمال الله تعالى، لكن المعتزلة تجعل التوحيد والتنزيه مقتضيين لنفي الصفات الزائدة القديمة، بينما ترى الأشاعرة أن التنزيه لا يتعارض مع إثبات الصفات.⁽¹⁾

- ثالثًا: الاختلاف في مفهوم التوحيد

يمثل مفهوم التوحيد نقطة الانطلاق الأهم في فهم الخلاف بين المدرستين. فقد رأى المعتزلة أن إثبات صفات قديمة متميزة عن الذات يهدد وحدة القدم، ولذلك جعلوا نفي الصفات الزائدة جزءاً من تصورهم للتوحيد؛ أما الأشاعرة فقد أعادوا صياغة المشكلة من خلال التمييز بين الذات والصفة من جهة، وبين الذات المستقلة والصفة القائمة بالذات من جهة أخرى. فالصفة عندهم ليست ذاتاً مستقلة حتى يقال إن إثباتها يوجب تعدد القدماء، وقد ناقش الغزالي هذه المشكلة بصورة واضحة، مبيناً أن البحث في تعدد الصفات وعلاقتها بالذات من أعقد مسائل الصفات، وأن مجرد إثبات تعدد الصفات لا يكفي لإثبات تعدد الموجودات المستقلة.⁽²⁾

- رابعًا: الاختلاف في العلاقة بين الذات والصفات

يتمثل أحد أهم مواضع الاختلاف في السؤال: هل الصفات الإلهية هي عين الذات، أم أنها معاني زائدة عليها؟، واتجه المعتزلة إلى نفي الصفات الزائدة القديمة، مع إثبات ما تدل عليه الصفات من معاني على وجه لا يقتضي تعدد القدماء. أما الأشاعرة فأثبتوا الصفات باعتبارها معاني قائمة بالذات، مع رفض تصورهما باعتبارها ذاتاً مستقلة، ومن هنا ظهر في التراث الأشعري التفريق بين المغايرة في المعنى والاستقلال في الوجود؛ فكون العلم غير القدرة من حيث المفهوم لا يعني أن العلم والقدرة ذاتان مستقلتان. وهذا التفريق هو أحد الأسس التي اعتمد عليها الأشاعرة في معالجة الاعتراض المتعلق بتعدد القدماء، وقد توسع الجويني في تصنيف الصفات وبيان خصائصها، فقسمها إلى صفات نفسية وصفات معنوية، وهو ما يعكس درجة متقدمة من التنظيم الاصطلاحي داخل البناء الأشعري.⁽³⁾

وأبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، القاهرة: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1950م، في مباحث التوحيد والصفات.

(1) أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق هلموت ريتير، فيسبادن: Franz Steiner Verlag، ط3، 1980م، ج1، ص244-245.

(2) أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق عبد الله محمد الخليلي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ، ص69-70.

(3) إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجويني، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، بيروت: دار الكتب العلمية، في باب «القول فيما يجب لله تعالى من الصفات»، ص17 في النسخة الرقمية المشار إليها.

- خامساً: الاختلاف في المنهج العقلي

لا يكمن الفرق بين المدرستين في استخدام العقل من عدمه، بل في وظيفة العقل وحدوده وطريقة توظيفه في تفسير النصوص وإثبات العقائد؛ فالمعتزلة أعطوا العقل مجالاً واسعاً في تحديد ما يجوز على الله وما يستحيل، وجعلوا مقتضيات التوحيد والتنزيه معياراً مهماً في التعامل مع النصوص التي ظاهرها ما لا يليق بالله تعالى؛ أما الأشاعرة فقد استخدموا العقل كذلك، لكنهم حاولوا الجمع بين البرهان العقلي وإثبات دلالة النصوص، مع اختلافهم في طرائق التعامل مع النصوص الخبرية، وإن المدرستين تنتميان إلى تقليد كلامي عقلي، غير أن اختلافهما في نتائج العقل التي توصلوا إليها هو الذي أنتج اختلافهما في الصفات.⁽¹⁾

- سادساً: الاختلاف في مشكلة تعدد القدماء

من أهم الحجج التي وظفها المعتزلة أن إثبات صفات قديمة متعددة إلى جانب الذات يفضي إلى تعدد القدماء، وهو ما يتعارض مع أصل التوحيد؛ أما الأشاعرة فأجابوا عن ذلك بالقول إن الصفات ليست ذواتاً مستقلة، وإن تعدد الصفات لا يساوي تعدد الذوات؛ فوجود العلم والقدرة والإرادة والحياة بوصفها صفات قائمة بالذات الواحدة لا يعني وجود موجودات متعددة مستقلة، وبذلك يمكن القول إن الخلاف هنا يعود إلى اختلاف المدرستين في مفهوم القدم والتعدد؛ فالمعتزلة ربطوا التعدد في الصفات القديمة بمحذور تعدد القدماء، بينما فصل الأشاعرة بين تعدد المعاني وبين تعدد الموجودات المستقلة.⁽²⁾

المطلب الثاني: الأسس العقلية والفلسفية للخلاف

- أولاً: طبيعة الخلاف بين الكلام والفلسفة

لا يمكن فهم الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في الصفات بمعزل عن البيئة الفكرية التي نشأ فيها علم الكلام وتطور فيها الحوار حول قضايا الوجود والإلهيات، فقد واجه المتكلمون أسئلة تتعلق بالواجب والممكن، والقدم والحدث، والجوهر والعرض، والسببية، وطبيعة الصفات، وهي مسائل أصبحت لاحقاً مشتركة بين علم الكلام والفلسفة، وإن اختلفت المناهج والنتائج، ومن هنا فإن وجود تشابه بين بعض استدلالات المتكلمين وبعض مباحث الفلاسفة لا يعني بالضرورة أن أحد الطرفين أخذ المسألة مباشرة عن الآخر؛ إذ قد تنشأ مسائل متشابهة نتيجة اشتراك الطرفين في البحث عن تفسير عقلي لمشكلة واحدة، وتؤكد الدراسات الحديثة حول علاقة الكلام الأشعري بالفلسفة أن هذه العلاقة لم تكن على صورة واحدة؛ فقد بدأت بالمواجهة في مراحل مبكرة، ثم اتجهت المدرسة الأشعرية المتأخرة إلى استيعاب عدد من المناهج والمباحث الفلسفية.⁽¹⁾

- ثانياً: مفهوم الذات والصفة بوصفه أساساً فلسفياً للخلاف

يكشف الخلاف بين المدرستين عن سؤال فلسفي أعمق يتعلق بطبيعة الموجود وصفاته: هل يمكن أن يكون الشيء واحداً مع اتصافه بمعانٍ متعددة، أم أن تعدد المعاني الحقيقية يقتضي تعدداً في الوجود؟، إن المعتزلة يميلون إلى

(1) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق عبد الله محمد الخليفي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2003م، ص127-128.

(2) ينظر: الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، ص69-70؛ والباقلاني، الإنصاف، في مباحث الصفات.

(1) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، العدد 7، 2020م، ص315-337.

التشدد في منع ما يروونه مقتضياً لتعدد القدمات، ولذلك يؤولون تعدد الصفات بحيث لا تصبح معاني قديمة قائمة بالذات على نحو مستقل في الاعتبار الوجودي؛ أما الأشاعرة فيقبلون تعدد الصفات مع الحفاظ على وحدة الذات، ويفرقون بين كون الصفة معنى متميزاً وبين كونها ذاتاً مستقلة، ولذلك فإن البناء الأشعري يسمح بإثبات كثرة في الصفات دون إثبات كثرة في الإله، وهذه المسألة تكشف أن الخلاف ليس لفظياً، وإنما يتعلق بمفهوم الوحدة والكثرة في الوجود.⁽²⁾

- ثالثاً: العلاقة بين التوحيد والتنزيه

اعتمد المعتزلة على مبدأ التوحيد بوصفه أساساً لنفي الصفات الزائدة، في حين لم ير الأشاعرة أن إثبات الصفات يتعارض مع التوحيد؛ فالاختلاف إذن ليس حول قيمة التوحيد، وإنما حول ما يقتضيه التوحيد عقلاً، وهذا أمر بالغ الأهمية في التحليل؛ لأن النتيجة العقدية تختلف بسبب اختلاف المقدمة العقلية التي ينطلق منها كل فريق؛ فإذا قيل إن إثبات صفة قديمة يستلزم إثبات موجود قديم مستقل، كان نفي الصفات نتيجة منطقية لهذا التصور، أما إذا قيل إن الصفة القديمة ليست ذاتاً مستقلة ولا موجوداً منفصلاً، فلا يلزم من إثباتها تعدد الآلهة، ومن هنا فإن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة يمكن قراءته بوصفه خلافاً حول اللوازم العقلية لإثبات الصفات.⁽³⁾

- رابعاً: مفهوم الكمال الإلهي

يرتبط الخلاف كذلك بتحديد الطريقة التي يُعبر بها عن كمال الله تعالى؛ فالمعتزلة أثبتوا العلم والقدرة والحياة والإرادة ونحوها لله تعالى، لكنهم لم يجعلوها صفات قديمة زائدة على الذات على الوجه الذي رفضوه، أما الأشاعرة فذهبوا إلى أن كمال الذات يقتضي إثبات صفات حقيقية قائمة بها، وبالتالي فإن المدرسة الأشعرية اعتبرت أن نفي الصفات بالمعنى المعتزلي يؤدي إلى إشكال في حقيقة الكمال، في حين رأى المعتزلة أن إثبات الصفات الزائدة يؤدي إلى إشكال في التوحيد، وهكذا أصبح الخلاف قائماً بين أصليين عقليين: المحافظة على وحدة الذات من جهة، والمحافظة على حقيقة الصفات من جهة أخرى.

- خامساً: العقل والنقل في بناء الموقف

يظهر الخلاف أيضاً في طريقة العلاقة بين الدليل العقلي والدليل النقلي؛ فالمتكلمون عموماً لم يقبلوا أن يؤدي ظاهر النص إلى إثبات ما يناقض أصول التنزيه، ولذلك لجؤوا إلى التأويل أو التفويض بحسب المسألة والمذهب؛ غير أن الأشاعرة المتأخرين، خصوصاً بعد دخول أدوات المنطق والفلسفة في الدرس الكلامي، أصبحوا أكثر استعماً للمقدمات العقلية المركبة في بناء البراهين، وهو ما أسهم في تطور علم الكلام من حيث المصطلحات والمناهج، وهذا التطور التاريخي مهم بالنسبة إلى موضوع البحث؛ لأنه يبين أن الحدود بين الفلسفة وعلم الكلام لم تكن ثابتة، بل شهدت تداخلاً متزايداً في المراحل اللاحقة، وقد وصفت دراسة محمد الأنصاري هذا المسار بالانتقال

(2) عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت، ص197.

(3) القاضي عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ/1996م، ص183، وص195.

من المواجهة إلى الاستيعاب، مع استمرار وجود اتجاهات داخل المدرسة الأشعرية تحذر من الإفراط في المزج بين المجالين.⁽¹⁾

- سادساً: مسألة التأويل وأثرها في الخلاف

أنتج اختلاف المدرستين في التعامل مع النصوص اختلافاً في مفهوم التأويل ووظيفته؛ فالتأويل عند المتكلمين ليس مجرد صرف للنص عن ظاهره، وإنما يرتبط لديهم بوجود دليل عقلي يقتضي عدم حمل اللفظ على ظاهره المتبادر، وفي هذا السياق يظهر البعد الفلسفي للمشكلة؛ لأن تحديد «الظاهر» و«المعنى الممكن» و«المعنى المستحيل» يتطلب تصوراً عقلياً لطبيعة الله تعالى وما يجوز عليه وما يستحيل، ومن ثم فإن التأويل ليس قضية لغوية محضة، وإنما يرتبط بمقدمات كلامية وفلسفية سابقة تحدد مجال الممكن والمستحيل في حق الله تعالى.⁽²⁾

- سابعاً: حدود التأثير بالفلسفة

ينبغي عند دراسة العلاقة بين الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام الحذر من القول بأن المعتزلة أو الأشاعرة مجرد امتداد للفلسفة اليونانية؛ فهذا حكم يتجاوز ما تسمح به الأدلة التاريخية، والأدق أن يقال إن المتكلمين واجهوا مسائل فلسفية مشتركة، واستعملوا أدوات عقلية متعددة، ثم تطورت العلاقة في مراحل مختلفة، وتزداد أهمية هذا التحفظ عند دراسة الأشاعرة؛ لأن المذهب في مرحلته الأولى كان في حالة مواجهة مع عدد من المقولات الفلسفية، ثم اتسعت دائرة التفاعل في مراحل لاحقة، وقد رصدت الدراسات الحديثة هذا التطور التاريخي بوضوح، ولا سيما عند الغزالي ثم الرازي والأمدى والإيجي وغيرهم.⁽¹⁾

- ثامناً: الصفات الإلهية بوصفها نموذجاً للتداخل بين الكلام والفلسفة

تمثل مسألة الصفات الإلهية نموذجاً مناسباً لدراسة التداخل بين الكلام والفلسفة؛ لأنها تجمع بين مباحث التوحيد والوجود والماهية والصفة والعلاقة بين الواحد والكثير؛ فالسؤال عن كون الصفات زائدة على الذات أو غير زائدة يتجاوز الجانب العقدي المباشر إلى سؤال فلسفي يتعلق بطبيعة الصفات وعلاقتها بالموجود الذي تتصف به، وكذلك فإن سؤال «هل تعدد الصفات يوجب تعدد الذات؟» يتصل بمشكلة الوحدة والكثرة، ومن هنا فإن دراسة الصفات لا تكشف فقط عن الاختلاف العقدي بين المعتزلة والأشاعرة، بل تكشف كذلك عن طبيعة التفكير العقلي الذي استخدمه كل فريق في معالجة العلاقة بين الواحد والمتعدد.⁽²⁾

- تاسعاً: المقارنة مع الفلاسفة

يختلف المتكلمون عن الفلاسفة في عدد من النتائج المتعلقة بالصفات الإلهية، وإن امتلكوا معهم في بعض الأسئلة والمقدمات؛ فالفلاسفة المشاؤون، في جانب من بنائهم الإلهي، تعاملوا مع الصفات الإلهية ضمن تصور خاص للواجب وصفاته، في حين انطلق المتكلمون من بناء عقدي يقوم على الوحي وإثبات العقائد والدفاع عنها؛ ولهذا

(1) محمد الأنصاري، علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، العدد 7، 2020م، ص 315-337.

(2) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق عبد الله محمد الخليلي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2004م، ص 44.

(1) محمد الأنصاري، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، ص 315-337.

(2) عضد الدين الإيجي، المواقف في علم الكلام، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت، ج 3، ص 479-480.

فإن التشابه في بعض المصطلحات أو المسائل لا يكفي لإثبات التطابق بين المذهبين، بل إن وجود اختلاف في النتائج يدل على أن المتكلمين أعادوا صياغة الأسئلة الفلسفية ضمن منظومتهم الكلامية الخاصة، وهذا ينسجم مع ما يظهر في تاريخ الكلام الأشعري من انتقال تدريجي من نقد الفلسفة إلى الاستفادة من أدواتها ومباحثها، دون أن يعني ذلك ذوبان المذهب الكلامي فيها.⁽³⁾

المطلب الثالث: التقويم النقدي

- أولاً: تقويم الموقف المعتزلي

يمكن القول إن قوة الموقف المعتزلي تكمن في حرصه الشديد على المحافظة على وحدة الذات الإلهية وتنزيهها عن مشابهة الموجودات المركبة أو المتعددة، كما أن بناءهم العقلي يوضح بصورة دقيقة لماذا رأوا أن إثبات صفات قديمة زائدة على الذات يحتاج إلى تفسير حتى لا يؤدي إلى ما عدوه تعددًا في القدماء؛ غير أن هذا الموقف يواجه إشكالاً من زاوية أخرى، يتمثل في مدى إمكانية إثبات معاني العلم والقدرة والإرادة والحياة لله تعالى مع نفي كونها صفات حقيقية قائمة بالذات؛ فكلما اتجه التفسير إلى جعل الصفات مجرد عبارات عن الذات، ظهر السؤال عن الفارق الحقيقي بين المعاني المختلفة التي تدل عليها تلك الأوصاف، ومن هنا يمكن القول إن الإشكال الرئيس في البناء المعتزلي ليس في إثبات كمال الله تعالى، وإنما في تفسير كيفية اجتماع كثرة الصفات والمعاني مع وحدة الذات.

- ثانياً: تقويم الموقف الأشعري

يتميز الموقف الأشعري بمحاولة تقديم حل وسط بين نفي الصفات وإثباتها؛ فهو يثبت الصفات الحقيقية، وفي الوقت نفسه ينفي أن تكون ذوات مستقلة أو أن تؤدي إلى تعدد الآلهة، وتبدو هذه المحاولة أكثر وضوحاً في التحليل الذي يميز بين تعدد المعاني وتعدد الموجودات المستقلة، وقد تطور هذا البناء في المدرسة الأشعرية حتى صار البحث في الصفات أكثر دقة من حيث تقسيماتها والعلاقة بينها وبين الذات، ويظهر ذلك بوضوح في تصنيف الجويني للصفات إلى نفسية ومعنوية، ومع ذلك فإن القول بأن الصفات «ليست عين الذات ولا غيرها» يحتاج إلى تفسير فلسفي دقيق حتى لا تتحول العبارة إلى حل لفظي للمشكلة؛ إذ يبقى السؤال عن نوع المغايرة المقصودة، وعن كيفية فهمها دون إثبات استقلال وجودي للصفات.

- ثالثاً: المقارنة من منظور فلسفي

إذا نظرنا إلى الخلاف من منظور فلسفي، فإن المعتزلة يميلون إلى تغليب مقتضى الوحدة والتنزيه في صياغة نظرية الصفات، بينما يميل الأشاعرة إلى تحقيق نوع من التوازن بين الوحدة وإثبات التعدد في المعاني، ولا يعني ذلك أن المعتزلة ينفون الكمال أو أن الأشاعرة يثبتون التعدد في الذوات، بل إن الاختلاف يتعلق بمستوى التحليل الذي ينبغي أن نفهم فيه الصفات: هل هي مجرد اعتبارات ذهنية أو تعبيرات عن الذات، أم أنها معاني حقيقية قائمة بالذات دون أن تكون ذوات مستقلة؟، ومن هذه الزاوية يمكن اعتبار الخلاف بينهما خلافاً في أنطولوجيا الصفات، أي في طبيعة وجود الصفات وعلاقتها بالذات، وليس مجرد خلاف في المصطلحات العقدية.

- رابعاً: العلاقة بين الوحدة والكثرة

(3) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، ط6، 1961م، ص173.

تكشف المسألة في جوهرها عن مشكلة فلسفية عامة هي مشكلة العلاقة بين الواحد والكثير؛ فإله تعالى واحد من حيث الذات، لكن النصوص والعقيدة تثبت له أوصافاً متعددة؛ ومن هنا نشأ السؤال: كيف يمكن أن تجتمع الكثرة في الصفات مع الوحدة في الذات؟، وحاول المعتزلة حل المشكلة بإرجاع الصفات إلى الذات ونفي الزيادة القديمة، بينما حاول الأشاعرة حلها بإثبات الصفات مع نفي استقلالها عن الذات، وعلى هذا الأساس فإن كل مذهب قدم تصورًا مختلفًا لطريقة الجمع بين الوحدة والكثرة، وهو ما يجعل مسألة الصفات نموذجًا مركزيًا في دراسة التفاعل بين علم الكلام والفلسفة.

- خامسًا: القيمة المنهجية للخلاف

تكشف المقارنة كذلك أن الخلاف الكلامي لا ينشأ دائمًا بسبب اختلاف في النصوص، وإنما قد ينشأ بسبب اختلاف في المقدمات العقلية التي تحكم فهم النص؛ فإذا اختلف المتكلمون في تصورهم لمعنى الوحدة أو القدم أو الصفة، فمن الطبيعي أن يختلفوا في النتائج التي يستخلصونها من النصوص نفسها، ومن هنا تتضح أهمية دراسة الأسس المنهجية للمذاهب الكلامية، لأن معرفة النتيجة وحدها لا تكشف حقيقة الخلاف؛ وإنما ينبغي تحليل مقدماتها وأدلتها ولوازمها.

- سادسًا: موقع الفلسفة الإسلامية في هذا الخلاف

لا ينبغي النظر إلى الفلسفة الإسلامية باعتبارها مصدرًا مباشرًا لكل الخلافات الكلامية، وإنما ينبغي النظر إليها بوصفها أحد المكونات الفكرية التي تفاعلت معها المدارس الكلامية بدرجات مختلفة؛ ففي المراحل الأولى كان التفاعل أقرب إلى المواجهة والنقد، ثم تطورت العلاقة لاحقًا، خصوصًا في الكلام الأشعري المتأخر، بحيث استوعب المتكلمون عددًا من المصطلحات والأدوات والمباحث الفلسفية، وتؤكد الدراسات المتخصصة أن هذا التطور جعل الحدود بين الكلام والفلسفة أقل وضوحًا في بعض المراحل المتأخرة.

- سابعًا: النتيجة النقدية العامة

يمكن بناءً على المقارنة السابقة القول إن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة في الصفات الإلهية يمثل خلافًا مركبًا يجمع بين البعد العقدي والبعد الكلامي والبعد الفلسفي؛ فالخلاف العقدي يظهر في كيفية إثبات الصفات، والخلاف الكلامي يظهر في الأدلة والحجج التي اعتمدتها كل مدرسة، أما البعد الفلسفي فيظهر في الأسئلة المتعلقة بالوجود والماهية والوحدة والكثرة والعلاقة بين الذات والصفة، وعليه فإن اختزال الخلاف في عبارة «المعتزلة نفوا الصفات والأشاعرة أثبتوها» لا يعبر عن حقيقة المسألة بدقة؛ لأن المعتزلة أثبتوا لله تعالى معاني الكمال، وإنما نفوا الصفات القديمة الزائدة على الذات، بينما أثبت الأشاعرة الصفات باعتبارها معاني قائمة بالذات دون استقلال وجودي عنها. وخلصت المقارنة إلى أن المعتزلة والأشاعرة يشتركون في أصل التوحيد والتنزيه وإثبات كمال الله تعالى، لكنهم يختلفون في تفسير العلاقة بين الذات والصفات وفي تحديد اللوازم العقلية لإثباتها، فقد رأى المعتزلة أن إثبات صفات قديمة زائدة على الذات يؤدي إلى إشكال في وحدة القدم، ولذلك نفوا الزيادة على الذات مع إثبات معاني الكمال لله تعالى، أما الأشاعرة فأثبتوا الصفات الحقيقية القائمة بالذات، ورأوا أن تعدد الصفات لا يستلزم تعدد الذوات أو القدماء.

كما أظهرت المقارنة أن الخلاف بين المدرستين لا يمكن فهمه بعيدًا عن الأسئلة الفلسفية المتعلقة بالوحدة والكثرة، والذات والصفة، والوجود والاستقلال، فضلًا عن اختلافهما في توظيف العقل في بناء العقائد وتأويل النصوص،

ولذلك فإن مسألة الصفات الإلهية تعد من أبرز النماذج التي يتداخل فيها علم الكلام مع الفلسفة الإسلامية، مع ضرورة التمييز بين التأثير المباشر وبين الاشتراك في معالجة مشكلات عقلية متقاربة، وبذلك يتبين أن القيمة العلمية للمقارنة لا تكمن في تسجيل الاختلافات المذهبية فحسب، وإنما في الكشف عن المنطلقات العقلية والفلسفية التي أنتجت تلك الاختلافات، وهو ما يفتح المجال لتقويم أعمق للموقفين، بعيداً عن التصنيف التبسيطي بين الإثبات والنفي.

الخاتمة

خلص البحث إلى أن قضية الصفات الإلهية كانت مجالاً مركزياً لتطور التفكير الكلامي والفلسفي في الحضارة الإسلامية، وأن الخلاف بين المعتزلة والأشاعرة فيها لا يمكن فهمه باعتباره مجرد نزاع بين الإثبات والنفي، فقد انطلق الطرفان من أصل مشترك هو توحيد الله تعالى وتنزيهه، ثم اختلفا في الطريق العقلي الذي رأى كل منهما أنه يحقق هذا الأصل؛ فالمعتزلة شددوا على صيانة التوحيد من كل تصور يؤدي إلى تعدد القدما، بينما سعى الأشاعرة إلى إثبات الصفات دون جعلها ذواتاً مستقلة عن الذات الإلهية، ومن هنا نشأت منطقة واسعة من البحث في مفهوم المغايرة، وفي العلاقة بين المفهوم والوجود، وهي المنطقة التي جعلت قضية الصفات نقطة التقاء مهمة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية، وبذلك يتبين أن القيمة العلمية لدراسة هذه القضية لا تقتصر على معرفة مواقف مدرستين كلاميتين، وإنما تمتد إلى فهم كيفية بناء العقل الإسلامي لمفاهيم الوحدة والكثرة، والذات والصفة، والعقل والنص، وكيف أدى اختلاف المقدمات إلى اختلاف النتائج، مع بقاء الغاية العامة المتمثلة في تقرير التوحيد والتنزيه حاضرة لدى المدرستين.

وبعد دراسة قضية الصفات الإلهية عند المعتزلة والأشاعرة، والنظر في صلتها بعلم الكلام والفلسفة الإسلامية، يتبين أن هذه القضية كانت من أكثر القضايا قدرة على الكشف عن طبيعة التفكير العقدي والعقلي في الحضارة الإسلامية؛ فلم يكن الخلاف فيها مجرد اختلاف في إثبات الصفات أو نفيها، وإنما كان اختلافاً في التصور الذي يحدد العلاقة بين الذات الإلهية والصفات، وفي المبادئ العقلية التي ينبغي اعتمادها عند تفسير هذه العلاقة، كما أظهرت الدراسة أن الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام التقيا في عدد من الأسئلة المتعلقة بالوجود والوحدة والكثرة والصفات، إلا أن هذا الالتقاء لا يعني التطابق بينهما ولا يثبت بالضرورة أن أحدهما كان مصدراً مباشراً للآخر في كل مسألة، وقد ظل علم الكلام مرتبطاً بوظيفته الأساسية في بناء العقائد والدفاع عنها، مع استفادته التدريجية من أدوات ومفاهيم عقلية وفلسفية.

- النتائج:

- 1- إن قضية الصفات الإلهية تمثل محوراً أساسياً في علم الكلام؛ لأنها تتصل مباشرة بمسائل التوحيد والتنزيه، وبالعلاقة بين الذات الإلهية وما يوصف به من صفات الكمال.
- 2- لا يصح اختزال موقف المعتزلة في نفي الصفات بإطلاق؛ فالمعتزلة أثبتوا لله تعالى أوصاف الكمال، وإنما رفضوا إثبات معانٍ قديمة زائدة على الذات على النحو الذي رأوا أنه يؤدي إلى تعدد القدما، ويظهر ذلك بوضوح في عرض القاضي عبد الجبار لموقف شيوخ المعتزلة من العلم والقدرة والحياة.

- 3- قام الموقف الأشعري على الجمع بين التوحيد وإثبات الصفات، فلم ير الأشاعرة أن إثبات الصفات القديمة القائمة بالذات يؤدي إلى تعدد الآلهة، لأن الصفات عندهم ليست ذاتاً مستقلة، وإنما معانٍ قائمة بالذات الإلهية.
- 4- يكمن جوهر الخلاف في مسألة الصفات في العلاقة بين التغير المفهومي والتغير الوجودي؛ فاختلاف مفاهيم العلم والقدرة والإرادة لا يعني بالضرورة تعدد الموجودات، وهذه النقطة كانت من أهم الأسس التي اعتمد عليها الأشاعرة في إثبات الصفات.
- 5- كان العقل حاضراً في الموقفين المعتزلي والأشعري، ولذلك فإن تفسير الخلاف بأنه صراع بين «العقل» و«النقل» لا يكفي لتفسير حقيقة المسألة، والأدق أن الخلاف كان في مقدمات الاستدلال، وفي حدود الأحكام العقلية، وفي طريقة التعامل مع النصوص التي ظاهرها لا ينسجم مع تلك المقدمات.
- 6- كشفت صفة الإرادة عن اختلاف أعمق في تصور العلاقة بين الله تعالى والعالم؛ إذ ارتبطت عند المعتزلة بمسائل العدل وأفعال الله، بينما أثبتتها الأشاعرة صفة قديمة متعلقة بالكائنات، وجعلوا التخصيص أحد أهم وجوه الاستدلال عليها.
- 7- تمثل مسألة الكلام الإلهي أحد أبرز مواضع الاختلاف بين المدرستين؛ فالمعتزلة قالوا بحدوث كلام الله تعالى، بينما أثبت الأشاعرة الكلام صفة قديمة قائمة بالذات، وهو اختلاف يرتبط مباشرة بمفهوم الصفة والقديم والحادث.
- 8- تتضمن قضية الصفات بعداً فلسفياً واضحاً؛ لأنها تثير أسئلة الوحدة والكثرة، والذات والصفة، والمفهوم والوجود، والمغايرة والاستقلال، غير أن هذا البعد الفلسفي لا يعني أن علم الكلام كان مجرد تابع للفلسفة، بل إن كثيراً من هذه الأسئلة نشأ في الجدل الكلامي نفسه.
- 9- إن الاتفاق بين المعتزلة والأشاعرة في الغاية العامة لا يلغي اختلافهما في الطريق؛ فكلاهما قصد إلى تنزيه الله تعالى وإثبات كماله، لكن المعتزلة جعلوا نفي تعدد القدماء أساساً في معالجة الصفات، بينما سعى الأشاعرة إلى إثبات الصفات مع نفي أن يكون إثباتها مقتضياً للتعدد الوجودي.
- 10- تكشف المقارنة أن الخلاف الكلامي كان خلافاً في البناء النظري أكثر من كونه خلافاً في أصل الاعتقاد بالله تعالى؛ ولذلك لا يمكن فهمه من خلال الأحكام المختصرة من قبيل «المعتزلة نفوا الصفات والأشاعرة أثبتوها»، بل لا بد من دراسة مفهوم الصفة عند كل مدرسة ومقدماتها العقلية ونتائجها.

- التوصيات:

- 1- ضرورة إعادة دراسة قضايا الصفات الإلهية من خلال النصوص الأصلية للمدارس الكلامية، وعدم الاكتفاء بالمصادر المتأخرة أو الدراسات المختصرة.
- 2- ضرورة التمييز في الدراسات المقارنة بين اختلاف المفهوم واختلاف الوجود، لأن كثيراً من الخلافات الكلامية نشأت من عدم التمييز الدقيق بينهما.
- 3- تشجيع الدراسات التي تبحث في العلاقة بين علم الكلام والفلسفة الإسلامية على أساس التفاعل التاريخي الموثق، وعدم نسبة التأثير إلى مجرد التشابه في المصطلحات أو النتائج.

- 4- ضرورة دراسة التطور الداخلي للمذاهب المعتزلي والأشعري؛ لأن كلا منهما لم يكن اتجاهًا جامدًا، بل ظهرت داخله اختلافات في تفسير الصفات ومناهج الاستدلال.
- 5- الإفادة من قضية الصفات الإلهية في دراسة تطور المناهج العقلية في الفكر الإسلامي، ولا سيما في مسائل التوحيد والوجود والعلية والمعرفة.
- 6- توسيع البحث مستقبلاً في أثر الخلاف حول الصفات في مسائل أخرى، مثل أفعال العباد، والقدر، والنبوة، والكلام الإلهي، والسمعيات، لما بينها من ترابط في البناء الكلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر الأصلية

- 1- الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق هلموت ريتز، فيسبادن: دار فرانز شتاينر، ط3، 1400هـ/1980م، ج1، ص244-248، وص285-286.
 - 2- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، تحقيق محمد زاهد الكوثري، القاهرة: مكتبة الخانجي، ص25-26، وص41-44، وص81.
 - 3- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، الاقتصاد في الاعتقاد، تحقيق عبد الله محمد الخليلي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ/2003م، ص44، وص69-70، وص127-128.
 - 4- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، ط6، 1961م، ص173.
 - 5- الجويني، إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله، الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، تحقيق أسعد تميم، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ص17، وص96.
 - 6- الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف في علم الكلام، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، ص197، وج3، ص479-480.
 - 7- القاضي عبد الجبار، عبد الجبار بن أحمد، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، القاهرة: مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ/1996م، ص151-157، وص182-184، وص195-196.
 - 8- الكندي، يعقوب بن إسحاق، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة: دار الفكر العربي، 1950م، ج1، ص97-99.
 - 9- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحقيق محمد عمارة، القاهرة: دار المعارف، ط2، ص27-29.
- ##### ثانياً: المراجع والدراسات
- 10- الأنصاري، محمد، «علاقة علم الكلام الأشعري بالفلسفة: من المواجهة إلى الاستيعاب»، مجلة ذخائر للعلوم الإنسانية، العدد 7، 2020م، ص315-337.
 - 11- عبد اللطيف، محمد عبد الرزاق عبد الحميد، «الصفات الإلهية بين المعتزلة والأشاعرة»، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد 66، 2021م، ص331-365.

- 12- **العدي، أبو حسين**، «الصفات الإلهية عند المعتزلة: مفهومها وسبب تأويلها»، 2011م، كما وردت بياناتها في عرض الدراسات السابقة المنشور في مجلة العلوم الإسلامية، المجلد الثاني، العدد الثالث، يونيو 2019م.
- 13- **هلال، راجح مصطفى مصطفى**، «الخلاف بين الأشاعرة والفلاسفة حول علاقة الذات الإلهية بالصفات وموقف أثير الدين الأبهري منها: دراسة تحليلية مقارنة»، مجلة قطاع أصول الدين، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد 21، 2024م، ص 221-287.
- 14- **غوتاس، ديمتري**، الفكر اليوناني والثقافة العربية: حركة الترجمة اليونانية-العربية في بغداد والمجتمع العباسي المبكر (القرن الثاني-القرن الرابع هـ/القرن الثامن-القرن العاشر م)، ترجمة وتقديم نقولا زيادة، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2003م، ص 31-33.
- 15- **صليبا، جميل**، تاريخ الفلسفة العربية، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ط3، 1995م، ص 129-131.
- 16- **أدامسون، بيتر**، الفلسفة في العالم الإسلامي: تاريخ الفلسفة بلا فجوات، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2016م، ص 1-12.
- 17- **واط، ويليام مونتغمري**، فترة تشكل الفكر الإسلامي، إندبرة: مطبعة جامعة إندبرة، 1973م.
- 18- **غريفيل، فرانك**، إلهيات الغزالي الفلسفية، أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، 2009م، ص 97-111.
- 19- **فرانك، ريتشارد مايكل**، ميتافيزيقا الكائن المخلوق عند أبي الهذيل العلاف، إسطنبول: المعهد التاريخي الأثري الهولندي، 1966م، ص